



رحلة الحق

من الإيمان إلى الإحسان

عثمان نوري طوباش









إسطنبول ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

إسطنبول ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب باللغة التركية: İmandan İhsana Hak Yolculuğu

الترجمة للعربية: د.وليد القط/ محمد سليم

مراجعةو تصحيح وتدقيق:

الدكتور.مراد كيا/ احمد حمدي/ محمد أقوموش/ اياد عمار

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٤٣٧٧

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : www.islamicpublishing.net

إلى الحق

سبحانه وتعالى

رحلة العبد من الإيمان إلى الإحسان

عثمان نوري طوباش





مقدمة الناشر

قال أولياء الحق جل جلاله قديما: (إن الغاية من الحياة إنما هي كسب الكمال وشهود الجمال)، فهم —كعادتهم— عبروا بإيجاز بليغ عن ضرورة بذل الجهد في سبيل ارتقاء الإنسان إلى الكمال البشري، وأن تكون الغاية العظمى إنما هي الوصول إلى جمال الله تعالى.

فالله الذي خلق الإنسان —دون سائر المخلوقات— في أحسنِ تقويم وأجملِ هيئة يريده أن يكون كذلك في كل مناحي حياته الأخرى، فيكون على أحسن تقويم في خُلقه وعمله وعبادته وسعيه إلى الحياة الأبدية، لأن الله تعالى يريد للإنسان الذي خلقه وجعله خليفته في هذه الدنيا أن يحيي فيها حياة تليق بهذه الخلافة عن الله، ليكافئه في نهاية رحلته هذه بالجنة والصلة الأبدية معه سبحانه.

ولكن الإنسان يستطيع أن يدخل هذه الجنة ويسعَد بوصال الله تعالى وهو ما يزال في هذه الحياة الدنيا، وذلك

عندما يعيش في مستوى يليق بهذه الجنان، وهذا يستوجب على الإنسان أن يبلغ مقاما من الكمال لا يصله إلا بالتربية الروحية.

ومن هنا كان حرص جميع الأنبياء والمصلحين والعلماء والمرشدين على الوصول بالإنسان إلى الكمال البشري المنشود، وتخليصه من كل ما يعوقه عن غايته هذه من سيطرة النفس الأمارة بالسوء عليه وتضليلها له، وقد بذلوا – جزاهم الله تعالى خيرا – في هذا السبيل جهودا عظيمة مضنية كي يَسْمُوا بالإنسان حتى يكون بحق عبدا لله تعالى على كل حال.

وقد أسس هؤلاء المصلحون – لهذه الغاية – نظاما تربويا خاصا أغنته العصور المتوالية يوما بعد يوم حتى يومنا هذا، حيث أقاموا أسس هذا النظام وقواعده على القرآن الكريم وسنة النبي الكريم ﷺ الذي جعله الله لنا الأسوة الحسنة.

وبذلك تحول هذا النظام عبر العصور إلى نظام تعليميّ مؤسسي، واشتهر في تاريخنا باسم "التصوف".



فحدد المنهجُ الصوفي للمُريد ما يجب عليه اتباعُه والعنايةُ به من القواعد والآداب للوصول إلى الله تعالى حتى يصير خليلا له سبحانه.

فإنه لا يدرك عناية الله ﷿ وإحسانه وصحبته إلا من كان يأخذ نفسَه بالقوة، ويؤدي ما عليه من حقوق وواجبات على أحسن حال، عندها فقط ينال شرف الانضمام إلى زمرة السعداء.

لذلك كان من الواجب على سالك طريق الحق إذا أراد أن يصل إلى ما وصل إليه السعداء أن يأخذ نفسه بتلك القواعد والأسس:

١. تصحيح العقيدة وفقا لعقيدة أهل السنة والجماعة.

٢. تعلم الفقه والأحكام الشرعية.

٣. أن يعمل العبد بما تعلمه حتى تكون حياته تبعا لما جاء به النبي الكريم ﷺ.

٤. الالتحاق بأحد طرق التصوف، وأن يعزم المريد على تزكية نفسه وتطهير قلبه من كل أدرانه.

وقد جاء هذا الكتاب الذي بين أيدينا – لأستاذنا المحترم عثمان نوري طوباش –كتابا إرشاديا للمريد، يبين له مسائل الذكر والتفكر والمراقبة، وأهمية ذلك للرقي الروحي، فجزاه الله تعالى عنا خيرا.

وإن كانت بعض المباحث – التي جاءت في هذا الكتاب – قد سبق لنا شرف نشرها في أعمال أخرى لأستاذنا، إلا أنه كان من الأهمية بمكان إعادة نشرها مرة ثانية – بعد صياغتها صياغة جديدة – مجتمعةً في كتاب واحد.

وأخيرا فإننا نضرع إلى ربنا العلي سبحانه أن يمنّ على أستاذنا المحترم بالصحة والعافية، وندعو لقرائنا بالتوفيق على طريق الحق.

دار الأرقم للنشر



تمهيد

التصوف والتربية الروحية

إن الغاية من الدين هي تعريف الإنسان بخالقه وما يجب عليه تجاهه من واجبات، ثم إقامة العلاقات بين البشر على العدل والحق والسلم والسكينة في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

ويهدف الدين كذلك إلى تنشئة إنسان مهذب لطيف رقيق الطبع سليم الطوية، أو بتعبير آخر أن يهيئ المؤمن لصحبة الحق ودخول الجنة.

ولذلك جاء التصوف ليصلَ بالمؤمن – من خلال التربية الروحية – إلى الحال التي يريدها الدين ويهدف إليها، ويحققَ ذلك التناغم بين باطننا وظاهرنا وبين قلوبنا وأعمالنا، فيعيش المؤمن في سكينة وسلام.

وقد عبر القرآن الكريم عن التصوف بكلمتي **التقوى والتزكية**، وورد ذكر التصوف في الحديث الشريف بتعبير



التقوى **والتزكية والزهد والإحسان**، وقيل له فيما بعد "فقه الباطن" أو "علم القلوب"[١].

---

١. **التقوى**: يُقصد بها أن يصون الإنسانُ قلبه باتباع أوامر الله تعالى والامتناع عن نواهيه ، وأن يشعر الإنسان بمسؤوليته أمام الله تعالى ، أو بتعبير آخر أن يتبرأ الإنسان من أهواء النفس السفلية لتظهر استعداداته الروحية .

– **التزكية**: يضم مصطلح التزكية في المعجم إلى جانب معاني التنظيف والتطهير معاني أخرى مثل الإكثار من الشيء والارتقاء به ومباركته ، وتعتبر التزكية ذلك الإطار الذي يضم كل أنواع التربية الروحية ، وتكون تزكية النفس من أشياء كثيرة يأتي على رأسها الكفر والجهل والمشاعر السيئة والمعتقدات الخاطئة والأخلاق المذمومة ، أي التطهر من كل ما يخالف الشرع الحنيف من ذميم الاعتقاد والأخلاق والأعمال ، وبعد أن يطهر العبد نفسه من الموبقات فإنه يزينها ويربيها بخصال التقوى كالإيمان والعلم والعرفان والحكمة والصدق والفطرة السليمة والروحانيات السامية .

– **الزهد**: ألا يكون للقلب تعلُّق بغير الله ﷻ .

– **الإحسان**: أن يشعر المؤمن أن الله ﷻ يراقبه ويراه في كل حركة وسكنة، وقد جاء في الحديث الشريف:

(الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن ، ٤٧٧٧) أي أن الروح في مقام الإحسان تحوّل مراقبة الله تعالى إلى حالة إدراك مستمرة .



إن التصوف هو الحالة التي يصير بها باطننا نقيا سليما باعتبار أصله، وبالتصوف يصل الإنسان إلى مستوى يمكنه من معرفة الله تعالى ونيل محبته، وبذلك يصير مؤهلا للوصال الإلهي.

ويبقى من الصعب – في إطار الدلالات المحدودة للكلمات – إيضاح معنى التصوف بدقة، ذلك لأن المعوَّل في إدراك هذا المعنى على الذوق، فيمكن للإنسان أن يتذوقه ويدركه بحسه كلما أخلص له أكثر فأكثر.

لهذا السبب أعطى أولياء الله تعالى تعريفاتٍ مختلفةً للتصوف، فكلٌّ نظر إلى التصوف من جهته الخاصة، فحاول أن يصل إلى لبه وجوهره.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه التعاريف تكوَّن لدينا فكرٌ عامٌّ فيما يتعلق بماهية التصوف:

- التصوف هو الأخلاقُ الحميدة والآداب الرفيعة.
- التصوف هو تزكيةُ النفس وتصفيةُ القلب.
- التصوف هو حربٌ روحية لا هوادةَ فيها، وجهادٌ لتطهير النفس من آفاتها.

- التصوف هو الإخلاص.
- التصوف هو الاستقامة.
- التصوف هو الرضا بالقضاء، والتسليمِ لله تعالى في مراده.
- التصوف هو مرآةٌ تعكس حياة رسول الله ﷺ عبر العصور والأجيال حتى قيام الساعة، أو هو ملاحظة أحوال رسول الله واتباعه بحبٍ حتى يتوافق الباطن والظاهر مع حياة رسول الله ﷺ، فنصل إلى نمطِ حياةٍ نتبع فيه نبينا المصطفى ونقلده في العبادة والطاعة والخُلق والمعاملة، غايتُنا أن نكون ممن ورد ذكرهم في الحديث الشريف:

(المرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ)[٢].

- التصوف هو جمالُ العبادة والمعاملة، الذي ينبثق عن الإيمان الخالص بالله والعشق له.
- التصوف هو فن الوصول إلى التقوى.
- التصوف هو الصدق مع الله تعالى وحسن الصلة به.

---

٢. صحيح البخاري، كتاب الأدب، ٦١٦٨ .



- التصوف هو فن توازن النفس في مواجهة الحياة بمدِّها وجزرها.
- التصوف هو الرضا عن الله تعالى في كل حال.
- التصوف هو الرضا عن قضاء الله، وتركُ الشكوى والاعتراض على مراده.
- التصوف هو التخلقُ بالخلق الحميد.
- التصوف هو تربيةٌ مقدسةٌ مباركةٌ.
- التصوف هو أن يعامل المؤمن الكامل روحيا جميع خلق الله بالرحمة والشفقة ويتدارك ما لديهم من نقائص.
- التصوف هو الطريق الذي يصل بالعبد إلى الله تعالى.
- التصوف أن تُحِسَّ بالقرآن والسنة وَجْدًا في القلب، وأن تعيشهما واقعا في الحياة.

الخلاصة...

أن التصوف هو فن التحقق بالمحبة الخالصة لله تعالى.

وفي النهاية فإن التعليم والتربية الحقيقية هو أن يعيش

الإنسان جميع هذه الصفات، وأن يتحقق بها حالا ومقالا، وتصير طبعا له وسجية فيه.

وينبغي هنا أن نؤكد على أن أحكام القرآن الكريم وسنة سيدنا رسول الله ﷺ هما الركنان الأساسيان اللذان يقوم عليهما بناء التصوف، ولهذا كان يُعتبر تطبيق القرآن الكريم والسنة النبوية وتمثُّلهما في كل صفحة من صفحات حياتنا وظهورُهما بجلاء في شخصيتنا، كان يعتبر ذلك الأساس الأهم في هذا الطريق الروحي.

فمن الأهمية بمكان أن تستقر عقائدنا على عقائد أهل السنة والجماعة، وأن ترتكز عباداتنا وأخلاقنا على أسس الشرع الحنيف، وأن تستظل أخلاقنا بأخلاق السلف الصالحين، فنحرص نحن وأهلينا على أن نحيا بالإسلام في كل جانب من جوانب حياتنا، وأن نحاسِب أنفسنا إذا قصرنا أو ابتعدنا عن الله ورسوله الكريم ﷺ.

فمراعاةُ حدود الحلال والحرام، وتجنُّبُ الشبهات، وأداءُ ما علينا من واجباتٍ على النحو الأمثل، والمضيُّ في العمل



بعزيمة صادقة، والتقربُ إلى الحق سبحانه بنوافل الطاعات، كل ذلك مهمٌ جدا لنرتقي بأرواحنا ونزكي قلوبنا.

ومن هنا جاءت العناية البالغة بأكل الحلال، فالحرص على الغذاء المادي للجسد لا يقلُّ عن الحرص على الغذاء المعنوي للروحِ، فكلاهما لا بد أن يكونا من حلال، فالجسد يستمد من الغذاء الحلال الفائدةَ المادية والمعنوية، وأما حين نغذِّيه بالحرام فإن القلب يقسو ويغفل.

فالقلوب الطائعةُ لأمر الله تعالى، الراضيةُ بقضائه، الخاضعةُ لمراده، تصير مجرىً للحكمة والخير والنجاح، وعلى النقيض من ذلك فإنَّ القلوبَ والأبدان التي لا تتقي المحرمات ولا تبالي بالشبهات تتحول مأوىً للرذائل ووكراً للفجور.

ويلفت مولانا عبد القادر الجيلاني – قدس سره – الأنظار إلى أهمية المأكل في تصفية النفس وتطهيرها فيقول:

(اسمع لي يا بني: إن المأكل الحرام يُميت القلبَ، فثمةَ لقمة تنير القلب وأخرى تجعله مظلما، كما أن هناك لقمة

تجعلك متعلقا مشغولا بالدنيا، وأخرى تشغلك بالآخرة، وهناك لقمة تجعلك زاهدا في الدارين ولقمة تجعلك مُقبلا على خالق الدنيا والآخرة، فالمأكل الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب إليك المعاصي، وأما المأكل الحلال فيقرب قلبك من المولى عَزَّ وَجَلَّ).

ويقول في هذا أيضا مولانا جلال الدين الرومي –قدس سره–:

(نزل إلى معدتي ليلةَ أمس بعضُ لُقيمات مشبوهة فقطعَتْ عني الإلهام).

فهذا الكلام يلفتنا إلى أنه ينبغي علينا التنبه إلى الوضع الروحي للطعام الذي نتناوله بقدر اهتمامنا بالحالة المادية له.

وبينما يولي **المبدأ الأول عنايته إلى مراعاة الحلال والحرام**، فإن **المبدأ الثاني للتربية الروحية يولي أهميةً خاصة للأذكار والأوراد من استغفار ودعاء وتسبيح،** فهذه الأذكار هي التي تحوّل المراقبة من شعورٍ إلى إدراك

في قلوبنا، ولهذه الأوراد أيضا أهمية كبيرة في تطهير النفس وتزكيتها حتى نؤدي عباداتِنا وطاعاتنا الظاهرةَ بإخلاصٍ كبير وخشوعٍ ووَجْد، وحتى تكتسيَ أخلاقُنا ومعاملاتنا ببهاء الرقة والأدب.

ولأهمية هذا المبدأ وفاعليته في التربية الروحية كان واحدا من أهم الوسائل التربوية التي سلكها الأنبياء والأولياء على امتداد التاريخ.

أما **المبدأ الثالث فهو الصحبة التي تتوحد من خلالها حالةُ المريد الروحية مع حالة المرشد الكامل الذي يصحبه**، فلما كانت الأحوال والأخلاق مُعدِيةً، ولما كان الإنسان لا ينفكُّ عن صحبة الآخرين، كان عليه مصاحبةُ الصالحين حتى يتشبه بهم ويقتبس منهم، ولأهمية هذه الصحبة اتخذها النبي ﷺ أسلوباً لتربية أصحابه.

وقد جعل مولانا بهاء الدين النقشبند الصحبةَ في موقع المركز من التربية الروحية في قوله:

(طريقنا هو طريق الصحبة).

ولا يقصد بالصحبة هنا أن تكون مجلساً للوعظ أو لقراءةِ كتاب فحسب، ولكنَّ الصحبة مجلسٌ روحانيٌ تتنزل فيه الرحمة والسكينة والفيض الإلهي، فهذه المجالس تليّن القلوبَ وترتقي بالنفوس حتى تتذوق نصيبا روحيا في معية الله تعالى، ويحصل كل فرد على تذكرة طيبة تتوافق واحتياجاته، فيكون لهذه الصحبة مذاقا يختلط مع بشاشة الإيمان فلا يمكن وصفه.

ولا يكون لهذه الصحبة أثرها في النفس، ولا تنضج شخصية الفرد – بمخالطة الصالحين وإدراك معاني كلماتهم وتحويلها إلى سلوك حي – إلا بالإخلاص.

أما **المبدأ الرابع في السير والسلوك، فهو خدمة عباد الله ومعاملتهم بالشفقة والرحمة**، وكذلك يفعل مع جميع خلق الله تعالى، بحيث يشعر المريد بالمسؤولية الإلزامية تجاههم قدر طاقته ووسعه.

ولا تكون هذه الخدمة مقبولة إلا إذا ابتغى بها المريد وجه الله تعالى، فيُقبل على خدمة الخلق بقلبٍ ملؤه



الإخلاص والرحمة والإيثار، ومن هنا فإنه ينبغي على المريد بَذْلُ الخدمة دون انتظارِ مقابلٍ أو شكرٍ عليها، بل هو مَن عليه أن يشكر المخدومين أنهم كانوا سبيلا ووسيلة له لينال بسببهم رضا الله تعالى.

وتحتل "**الخدمة**" في الطريق إلى الله مكانة جِدٌّ مهمة، ولذلك تُعتبر واحدة من أهم وسائل التربية الروحية، فبفضل الخدمة صارت بعض الخصال الحميدة — مثل الألفة والإنفاق والإيثار وبذل الذات — جزءا لا ينفصل عن شخصية المريد، وتكون الخدمة كذلك سببا لمعونة الله تعالى للعبد ما كان العبدُ في عون أخيه، فيحفظ نفسه بذلك من الانزلاق والضلال.

هذه بعض الأصول والآداب التي ينبغي مراعاتها في سبيل الرقي الروحي، وسوف نعرض فيما يلي لتفاصيل هذه الأصول وآدابها.

الفصل الأول

وقتُ السَّحَرِ المبارك وأسرارُه

أولى الخالق سبحانه وتعالى لليل أهمية عظمى، وأودع فيه من الأسرار الكثيرَ الكثيرَ، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (الانشقاق، ١٧).

والسرُّ في القَسَمِ الإلهي بالليل في هذه الآية الكريمة إنما هو تنبيهنا إلى هذا الوقت المبارك لنحُثَّ قلوبنا وإدراكاتنا أن تتمعن في مشاهدة الحقائق السامية التي يفيض بها.

فالقرآن الكريم كان ينزل غالبا في الليل.

والرؤى الصادقة – التي هي من مبشرات النبوة الأولى – إنما تتراءى لصاحبها في روحانيات الليل.

وكذلك الرؤى الرحمانية التي تستشف المستقبل المخطوط في اللوح المحفوظ إنما يكرمنا الله تعالى بها في كنف الليالي المعطرة بطاعته وذكره.



وحادثة الإسراء والمعراج التي وصل فيها حبيب الله تعالى إلى حقيقة المعية الإلهية وعرف بها معنى الصلة الأزلية إنما كانت هذه الأخرى رحلةً ليلية.

ولهذا ينظر المؤمنون الذين أدركوا معنى الرشاد إلى هذه الليالي باعتبارها غنائم استثنائية، لما يكون فيها من فيوضات وتجليات، ويجد الذين يعرفون قدر هذه الغنيمة فيها أرضا خصبة للتوجه إلى ربهم حتى يقبل منهم طاعاتهم ويستجيب لهم دعواتهم وتضرعهم إليه في سكون الليل العميق وخاصة في النصف الثاني منه، حين تأوي المخلوقات كلها إلى الراحة والسكينة.

ولأن كل شيء يسكن في الليل فإن الكون يميل إلى التوحد بعد الكثرة والتنوع، أو بتعبير آخر فإن العبد يتحرر من مشاغله الدنيوية الكثيرة، ويركز في الرحلة نحو الحق، ولذلك كانت هذه اللحظات فرصة لا تُعَوَّض للذين يسعون إلى قرب الله تعالى وإدراك وصاله.

إن أوقات السَّحَر هي دعوة خاصة من قِبَل الله تعالى لعباده، وعلى من يدرك هذه النعمة الجليلة من العباد أن

يؤدي شكرها حق الشكر، وشكرُها إنما يكون بالقيام في هذه الأوقات المباركة، فهذا القيام وحده هو التعبير الأبلغ عن الإخلاص في المحبة والتعظيم الذي يشعر به العبد تجاه ربه، وقد تحدث الحق ﷻ في الآيتين الكريمتين الآتيتين عن العباد السعداء الذين وعدهم ربهم بجنات وعيون، ذلك أنهم اتقوا عذاب الله تعالى بحرصهم على الاستغفار والقيام في الأسحار، فوصفهم بأنهم:

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الفرقان.

فصلاة التهجد وما يعقبها من تسبيحٍ تحملُ شكل اللقاء مع الحبيب العليِّ والخلوة به، وينبغي على المؤمنين حين يُحيون أوقات السحر بوَجْدٍ وحُبٍّ أن يحملوا فيض هذه اللحظات وروحانيتها معهم طيلة اليوم، وهذا يعني أن يصير المرء يقظا فيما الناس نيام، وأن يأوي إلى ظلال رحمة الله تعالى ويكون من عباده الذين اصطفاهم للخلوة به.

ولو أن المؤمن وضع نُصْبَ عينيه هدفا يقضي ليلته في سبيل تحقيقه، وأخذ نصيبا من روحانيات الذكر لأصبحت ليلته أكثر نورا من ضوء النهار، لكنه حين يقضي ليلته نائما أو يمضيها دون هدف فستكون ليلة عقيمة وخسارة كبيرة يصعب تعويضها، كمطر هطل على صخر أو بحر أو صحراء فذهب سدى.

وأسرار الليل وبديع تجلياته إنما تتجلى للذين يتعمقون في العبادة والتفكر، وبتعمقهم هذا تتسع العوالم الروحية لديهم حتى تصير مثل السموات والأرضين، وتفيض بالتجليات الإلهية السامية، وتستظل بظلال معرفة الله تعالى.

قال النبي الأكرم ﷺ:

(إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ)[٣].

٣. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، ٧٥٧.

وسُئل الحسنُ البَصري رحمه الله تعالى: ما بالُ أقوام أنارت وجوههم من قيام الليل؟ فقال:

(لأنهم خلوا بالحبيب فاقتبسوا من نوره).

وبسبب هذه المعية الربانية يدرك الصباحُ العاشقين وقد زاد شوقهم وعظُمَت محبتُهم، دون أن يشعروا بساعات الليل التي تمر سراعا.

ويقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى في معرِض حديثه عن قيمة الليالي في كشف الحقائق والأسرار الإلهية:

(لم يفتح لي شيء إلا بعد أن جعلت الليالي أياما)

فكان يقوم في الليل كما يقوم في النهار.

ويتحدث الحسن البصري رحمه الله تعالى أيضا عن سبب عدم التعبد ليلا، فيقول:

(إن العبد ليُذْنِبُ الذنبَ فيُحْرَمُ به قيام الليل).

وأهل القلوب التي نَعِمَتْ بفُيوضات السَّحَر هم وحدهم من يدرك أن الذين يُهملون الليالي ولا يتعرضون لنفحاتها سينهضون في الصباح متعبين كسولين محرومين



من بركة النهار، فأنّى لمن لم يعرف نعمة الليل أن ينال بركة النهار.

لهذا كان لزاما على مَن يَودُّ نيل بركة النهار أن يستغلَّ ليلته، فيعيش بذلك مُحاطًا برحمات الله تعالى تحتف به من كل جانب.

من هنا قال النبي ﷺ:

(.... وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ)[٤].

ويقول جبريل عليه السلام مخاطبا النبي ﷺ:

(يَا مُحَمَّدُ، شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ)[٥].

ويحكي عمرو بن عبسة رضي الله عنه، فيقول: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ مِنْ سَاعَةٍ أَقْرَبُ مِنَ الْأُخْرَى أَوْ هَلْ مِنْ سَاعَةٍ يُبْتَغَى ذِكْرُهَا؟ قَالَ:

(نَعَمْ. إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَبْدِ جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرَ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ

---

٤. صحيح مسلم، كتاب الصيام، ١١٦٣.

٥. المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، ٧٩٢١ .



اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَحْضُورَةٌ مَشْهُودَةٌ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ،....)[٦].

إن النظر إلى الحياة باعتبارها فترة لليل وأخرى للنهار هو بعينه لوحة مليئة بالعِبَر والعِظَات الإلهية، وبالمقابل فإنه لخسارة كبيرة أن يُحرَم المؤمن من الفيوضات والروحانيات الإلهية بقضائه ليلته كلها في النوم وكأنه هيكل جامد، وأن يضحي – في سبيل لذة النوم – بلذة قيام الليل، فكلنا مسافرون إلى الآخرة التي ستُنتَزع عندها كل الملذّات الفانية من بين أيدينا، أما أن يعيش المرء في الحياة الدنيا – التي تمر كسحابة صيف – دون أن يحمل هما للآخرة، فهذا كمن يغيب في النهار فلا يبصر الليل بعده.

ولذلك طلب رسول الله ﷺ من أمته كلها أن تؤدي صلاة التهجد باعتبارها من أهم وسائل الرقي الروحي، وبدأ هذا الأمرَ بالمقربين إليه، فتوجه ذاتَ ليلةٍ إلى بيت علي وفاطمة رضوان الله عليهما وطرق عليهما الباب،

٦. سنن النسائي، كتاب المواقيت، ٥٧٢ .



وشدد في نصحهما حتى يُفيدوا من الفيض الروحي في الليل، فقال: (**أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟**)[7].

وتحدث عليه الصلاة والسلام إلى أصحابه مرة، ودعاهم إلى الاستيقاظ وقت السحر قائلا:

(**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللهِ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ، وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ**)[8].

ويبين القاضي البيضاويُّ رحمه الله تعالى كيف كان يقضي الصحابة الكرام لياليهم، فيقول:

(كما روي أنه عليه السلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن)[9].

٧. صحيح البخاري ، كتاب التهجد ، ١١٢٧ .
٨. سنن الترمذي ، أبواب الدعوات ، ٣٥٤٩ .
٩. أنوار التنزيل ، ٤/١٥١ .

وقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا)[١٠].

وتؤكد الآية الكريمة الآتية على المعنى نفسه:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ التين.

وقد استخرج مفسرونا من هذه الآية معاني كثيرة منها، أن المؤمن لو داوم على النوافل باستمرار، فإن الله تعالى يجزيه نفس ثوابه عندما يتعذر عليه القيام بها في مشاق السفر والمرض وعند الكِبَرِ، ويستمر له أجره عندما يتعذر عليه أداء هذه الأعمال حتى بعد وفاته.

فالليالي هي الأوقات التي نتوجه فيها إلى معية الله تعالى بدافع المحبة والعشق وحدهما تاركين الفراش اللين الناعم الدافئ رغبةً فيما عند الله تعالى، لأجل هذا كان لصلاة الليل —مع أنها ليست من الصلوات المفروضة — أهمية عظيمة.

١٠. صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، ٢٩٩٦ .

ومن هنا كانت ترتبط شدةُ العشقِ والمحبةُ لله تعالى في القلوب بدرجة الحرص والرغبة في صلاة الليل والمداومة عليها.

فرسول الله ﷺ كان يقوم حتى تتورم قدماه، فقيل له: يا رسول الله، تفعل هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال:

(أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا)[١١].

ولأن إحياء الليل ليس بالأمر الهين فقد وجب على المريد مراعاة بعض الأمور، فإضافة إلى الشوق للعبادة — وهو أمر لازم في هذه الطاعة — ينبغي على المرءِ أن يخفف من طعامه عشاء قدر المستطاع، وأن يأوي إلى فراشه مبكرا.

فقد كان **(رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا)**[١٢].

١١. صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، ٤٨٣٦.
١٢. صحيح البخاري ، كتاب مواقيت الصلاة ، ٥٦٨ .

فالمؤمن لا يتأخر عن النوم إلا لأسباب مشروعة مثل الخدمة في سبيل الله تعالى، وأما غير ذلك فلا ينبغي أن يمنع المؤمنَ عن التبكير في النوم، فوعي المؤمن بهذه النقطة يجعله أكثر دراية وعزما للتغلب على ما يواجهه من صعوباتٍ عند القيام لصلاة الليل، ويجعله أقوى على حلّ عُقَدِ الشيطان التي يربطها على رؤوسنا عند النوم، فقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال:

(يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ)[١٣].

قال رجل لإبراهيمَ بن الأدهم رحمه الله تعالى:

إني لا أقدر على قيام الليل، فصِف لي دواء، فأجابه:

١٣. صحيح البخاري، كتاب التهجد، ١١٤٢.



(لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف)

وحتى يكون للمؤمن نصيب من بركة الليل فعليه أن يبدأ رحلته هذه بالاستغفار، ويستعين بالتوحيد والصلوات الشريفة وروحانيات الذكر، فإنَّ مداومة العبد على الذكر أوقات الأسحار هو فرصة للقاء الله تعالى، وغنيمةٌ لا تُعَوَّضُ، وحاجةٌ ماسَّةٌ لا يُستغنى عنها لإحياء القلب، فأرواحنا تحتاج الغذاء الروحي بقدر احتياج أجسادنا للغذاء المادي، ولذلك أولى اللهُ تعالى للذكر في أوقات السحر أهمية كبرى.





الفصل الثاني

الأوراد والأذكار

إن للأوراد والأذكار التي يناجي بها المؤمنُ ربَّه في الأسحارِ أهميةً بالغةً، فهي تُحيي القلبَ حين تجعله في معية ربه وهو يذكره، فكما قال أولياء الله تعالى: **(لا وارد لمن لا وِردَ له)**، أي أن المرء الذي لا نصيب له من الذكر يداوم عليه كل حين لا ينال حظا من الفيوضات الإلهية.

وبدايةً نقول إن أهم وِرْدٍ ينبغي أن تنبثق عنه كلُّ أورادنا وأذكارنا الأخرى إنما هو استقامتنا على طاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله الكريم ﷺ، فهو الأسوة الحسنة لنا في اعتقاده وعبادته.

ولقد أفصح الحق سبحانه عن نفسه لكل مخلوقاته حيّها وجمادها، وأمرهم جميعا بعبادته وذكره، فترى المخلوقاتِ جميعها تذكر الله تعالى، كلٌ بما يتوافق مع خِلقَته التي خلقه الله عليها، وفي هذا يقول محيي الدين بن عربي قدس سره:

(إن جميع المخلوقات تذكر الله تعالى بطريقتها الخاصة، ولكن تتفاوت مراتب المخلوقات في ذلك، فالجمادات هي أبعد المخلوقات عن الغفلة لأنها تستغني عن احتياجات البشر للمأكل والمشرب والملبس، ثم تأتي النباتات والتي تبدأ عندها الاحتياجات، فالنبات يصنع الغذاء الذي يحتاجه – حتى تنمو به الأزهار والأوراق والثمار – مما يستخرجه من الماء والتراب وفق نظام إلهي محدد، ثم تأتي بعد ذلك الحيوانات وهي أكثر تعقيدا في وظائفها الحياتية من النبات فلذلك تراها أكثر احتياجا من النبات، ومع كثرة الاحتياجات تكثر الأهواء، وأما الإنسان الذي يحتل قمة هذا السُّلم فلا نهاية لاحتياجاته ورغباته، مما يجعل أهواءه وأنانيته وحرصه على دنياه تسوقه إلى الغفلة عن الله تعالى)

إن القدرة على إدراك أسرار الكون الفسيح، واستشعار الحكمة الخفية التي تكمن وراءها ترتبط بحالة الإنسان الروحية ارتباطا وثيقا، فالمؤمن الذي ينظرُ إلى الكون من حوله بعيني قلبِه تفيض نفسُه بإحساسٍ آخرَ مختلفٍ.

وقد أعلن القرآنُ الكريم أنه ما من شيء صَغُرَ أو كَبُرَ في السموات والأرض إلا ويذكر الله تعالى ويسبح بحمده، وتخبرنا الآيات أنه ما من شيء في السموات والأرض إلا ويسجد لله تعالى، فالسماوات والأرضين، والجبال والشجر والدواب، والشمس والقمر والنجوم، حتى ظلالُنا عن اليمين والشمائل كل ذلك يسجد لله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ الرعد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ النحل.

فتشترك في هذا المنظر الجميل السجدات مع الظلال في حالة مزدوجة، فأحدهما سجدة المخلوق والأخرى سجدة ظله، فهما سجدتان في آن واحد، وكلُّ ذرة في الكون تسجد لله تعالى طوعا أو كرها، عبادةً لله تعالى وقياما بواجبها أمامه.

وهنا لا تملك إلا أن ترثي لأولئك الغافلين الذين اتخذوا لهم آلهة يعبدونهم من دون الله تعالى، فكيف يستقيم ذلك وكُلُّ ما في الوجود – حتى تلك الآلهة المزعومة – يتوجه إلى الله تعالى – الذي ينكره هؤلاء الغافلون – بالعبادة، ويسيرون في الكون وفق النظام الذي سنه الله تعالى لهم، ولكن هؤلاء الغافلين يخدعون أنفسهم ليبوءوا في الآخرة بالخسران المبين.

وهكذا تمضي الآيات وهي تعرِض لنا مسرحا من الظلال والأشياء والأحياء والملائكة، كلٌّ منهم يؤدي ما كُلِّفَ به في خشوع ووَجْدٍ، أما التهربُ من العبادة، والغفلةُ عن الله تعالى فهي من شأن الإنسان فحسب، ولذلك ترى الآياتِ تهزأ بهؤلاء الغافلين حين تجبههم بصور المخلوقات الأخرى وهي تملأ الكون تسبيحا وعبادة.

وحين نتأمل الأشياء من حولنا نرى صورا متنوعة للسجود، فمن ميل السماء الممتدة في الأفق نحو الأرض، إلى الجبال الشاهقة واستطالتها، ومن الظلال المتناثرة يمنةً

ويسرةً إلى الأشجار والنباتات والزهور وهي تنسج من هذه الظلال تحفة بديعة مؤثرة، إلى المطر الذي ينهمر كدموعِ باكيةٍ تنتحبُ، ثم يعقبُها الرعدُ كأنَّه صرخةُ عاشقٍ تنبعثُ من صدرِ السماء.

وهكذا تصير أحوالُ المخلوقاتِ التي تملأ السماء والأرض رسائلَ إرشاديةً مؤثرة توجهها العنايةُ الإلهية لكل عقلٍ واعٍ، فكلُّ مخلوقٍ منها مظهرٌ لقدرة الله تعالى، من أنينِ قلبٍ بحجم رأسِ المخيط في أصغر الحشرات حتى زمجرة أضخمِ الحيوانات وأعظمها رهبة.

ومن نغمةِ البلابل التي تنبعث بها أفئدةٌ بحجمِ قطرةِ ماءٍ إلى أصوات الحمائم واللقالق وغيرِها من الطيور التي تسبح اللهَ عَزَّوَجَلَّ تسابيحَ تؤثر في القلوب الواعية، يقول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج، ١٨)

وهكذا نرى أنَّ المخلوقاتِ جميعَها حتى الجمادات لا تتوقف عن تسبيح الله تعالى، ولكننا في المقابل نرى بعض الناس قد غفل عن ذكر الله تعالى حتى استوجب بهذه الغفلة سخط الله وعذابه.

فالمخلوقات جميعُها صغيرُها وكبيرُها تعرف خالقَها، حتى الطيورُ تعبد الله تعالى وتتضرع إليه، وكذلك الجبالُ والوديانُ لا تنفكُّ تسبحِّ الله تعالى وتذكره، ولكن – للأسف – في الوقت الذي تتصرف فيه الكائناتُ على هذا النحو نجدُ الإنسانَ سادراً في غيِّه وخسرانه، غافلا عن طبيعة الكون كله من حوله، فيحرم نفسه – بعبثه وإعراضه – من ذكر الله تعالى، ولا يستخلص العبرة من كل هذه الصور المبثوثة حوله، فتراه يسير على نحوٍ لا يتوافق والمكانةَ التي شرفه اللهُ تعالى بها.

ومما لا شك فيه أن حضورَ العبد مع ربه وذكرَه له هو الطريق إلى الأنس الإلهي، فأنى قلَّب المؤمنون أبصارَهم في هذا الكون فسيبصرون نور الله تعالى، وحيثما أرهفوا أسماعهم فسيسمعون تسبيح الله يملأ أرجاء الكون.

وبقدر ما نذكر الله تعالى في هذه الحياة الدنيا ننعم بوصاله في الحياة الآخرة، لأن ذكرَ الله تعالى هو الطريقُ للحياةِ بطُهر ونقاء، والموتِ على أكمل درجات الإيمان، فكما يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد.

أما الذي ينسى ربَّه ويضيعُ في متاهات الغَفلة فإنه يُفني عمره وهو ساهٍ لاهٍ لا يوقظه من غفلته هذه إلا الموت، ولكن بعد فوات الأوان حين يخسر كل شيء وينتهي وقت العمل، يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر.

وذِكرُ الله لا يكون بتكرار الكلمات على اللسان فحسب، فلا بد للذكر – حتى يؤثِّرَ في باطن الإنسان وظاهره – من أن يكون شعورا وحضورا في القلب، إذ هو مركز التوجيه لكل جوارح الإنسان، والذكر حين يكون

على هذه الهيئة من الحضور والوعي يكون وفاءً بما قطعه الإنسانُ على نفسه أمام ربِّه في "يوم ألست" حين قال الله لعباده: ألست بربكم ؟، فأجابوه: بلى.

وعن واقد مولى رسول الله ﷺ عنه أنه قال:

(مَنْ أَطَاعَ اللهَ ﷻ فَقَدْ ذَكَرَهُ، وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ، وَمَنْ عَصَى اللهَ فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ لِلْقُرْآنِ)[١٤].

ولما كانت الغفلة عن ذكر الله تعالى من أعظم المُهلِكَات فقد حذَّر المولى ﷻ عبادَه منها مرارا، فلا يتخلص العبدُ من قسوة الغفلة ولا ينال ما يرجوه من رضا الله تعالى إلا بالمداومة على ذكره سبحانه، وهذه المداومة لا توّقت بمدة أو فصل، بل هي شعورٌ واعٍ يحمله العبدُ بين جوانحه حتى آخرِ نَفَس في حياته، فاليقظة الروحية لا تتحقق إلا بهذا الحضور الدائم مع الله تعالى.

١٤. المعجم الكبير للطبراني، ٤١٣.

ومن هنا كان يجب علينا أن نبذُل قصارى جهدنا حتى نرتقي بأرواحنا مرتقىً لا تطاله تلك الملذات الدنيوية والشهوات الفانية، لنَنعَم بأفياء المحبة الربانية الخالدة دون منغِّص أو مشوِّش، فالمُحِبُّ يحمل ذِكرَ حبيبه معه في قلبه أنى كان وعلى أي حال كان لا يشغله عنه شاغل أبدا.

يقول النبي ﷺ إخبارا لنا عن ربنا جل في علاه:

(يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ....)[١٥].

وتحدث النبيُّ ﷺ إلى أصحابه ذات يوم، فقال:

(أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ)؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: (ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى)[١٦].

١٥. صحيح البخاري ، كتاب التوحيد، ٧٤٠٥ .

١٦. سنن الترمذي ، كتاب الدعوات، ٣٣٧٧ .



والجماعة حين تذكر الله تعالى تنال ما يناله الفرد وحده من فضل وأكثر، ففي الحديث أَنَّ معاوية ﵁ خرج على حلقة في المسجد، مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»)[17].

فقد كان رسول الله ﷺ يحثُّ أصحابه على ذكر الله تعالى، ويدلهم على ما يوافق حالَ كلِّ واحدٍ منهم، وليس أدلَّ على ذلك من الحديث الذي دار بين النبي ﷺ وأم

١٧. صحيح مسلم ، كتاب الذكر، ٢٧٠١.

هانئ ﵂: فعَنْ أُمِّ هَانِئٍ قَالَتْ: أَتَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ فَإِنِّي قَدْ كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ وَبَدُنْتُ، فَقَالَ:

(كَبِّرِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَاحْمَدِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَسَبِّحِي اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ فَرَسٍ مُلْجَمٍ مُسْرَجٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ، وَخَيْرٌ مِنْ مِائَةِ رَقَبَةٍ)[١٨]

فكما تحتاج أجسامنا للغذاء المادي حتى تحيا، فكذلك أرواحنا تحتاج الغذاء المعنوي حتى ترقى، وحياتها تكون بمعرفة ربها وعبادته، وكما إنه من الضروري أن ينتشر الغذاء في كل ذرة من أجسامنا حتى تحتفظ بحيويتها فكذلك من الضروري أن ينتشر ذكرُ الله تعالى في كل جوانب حياتنا حتى تجعل المؤمن في حالٍ دائمة من التنبه واليقظة، فالمداومة على الذكر هي الطريق التي تحفظ الإيمان عند الموت، وتكرمنا باللطائف التي تبلغنا الصفاء وتعرفنا لذة المعرفة الإلهية.

١٨. سنن ابن ماجه، كتاب الأدب، ٣٨١٠ .



إنَّ الذكرَ بوجدان طاهرٍ وصافٍ عن كل شائبة أمرٌ مهم غاية الأهمية، ولهذا السر كان يبدأ أهل الله أورادهم وأذكارهم بالتوبة والاستغفار.

أولا: التوبة والاستغفار:

التوبة هي الرجوع إلى الحق والإنابة إليه، فالعبد حين يغفل عن الحق يسلك الطريق الخطأ ويحوْل بوجهه وقلبه عن ربه، وحين يدرك ذلك ويؤوب إلى ربه يَفِيْضُ قلبُه بدموعٍ فاترة وأنَّةٍ متأوهة وندمٍ شديد، فهذا التحرق والندم هو التوبة، أما التضرع الذي يضج به القلب – بعد التوبة – رجاءَ العفو والصفح فهو ما نسميه الاستغفار.

وهذه الحال كانت حالَ الأولياء جميعاً وفي مقدمتهم الأنبياءُ عليهم السلام، وكذلك الصالحون والصديقون، فكلهم كان ديدنَهم الالتجاءُ إلى الله والتضرعُ إليه في السَّراء والضراء، وفي الرخاء والشدة، وفي الفرح والحزن، ولا يُتَصَوَّرُ بحالٍ أن يكون شخصٌ ما في هذا الكون الفسيح في غنىً عن الدعاء والاستغفار، لأنهما يحملان – إضافة

إلى معانيهما الأصيلة – معانيَ الندم والتضرع، لذا فقد كانا الوسيلةَ الأهمَّ للتقرب إلى الله تعالى.

ولما كان شكرُنا لله ﷻ على نِعَمِه الجزيلةِ التي تفضَّل بها علينا وقيامنا بحقها أمراً يفوق طاقتنا – حتى لو لم تَشُلَّ الذنوب جوارحَنا –، فقد كان الاستغفار – بما يحمله من شعور بالعجز والتقصير – من ضروريات العبودية، وعندما ننظر إلى ما حولنا بعيونِ قلوبنا فإننا نرى جميع المخلوقات تعترف بعجزها أولا قبل أن تتوجه إلى الله تعالى بالشكر على نعمه، ومن هنا كان الاستغفار هو الخطوةَ الأولى التي يحتاج ابن آدام – الذي لا ينفك عن المعاصي – أن يخطوها في طريقه وهو يتقرب إلى الله تعالى، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (كَانَ تُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي المَجْلِسِ الوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُورُ)[١٩].

فالاستغفار هو الوسيلة الأهم في السعيِ إلى الله تعالى،

١٩. سنن الترمذي، كتاب الدعوات، ٣٤٣٤.



والتطهرِ من الشهوات والأدناس، والارتقاءِ بالقلب إلى مرتقى عليٍّ، والتوبةُ المقبولة كذلك ترفع الحجب وتزيل العوائق بين العبد وربه، وتُدني العبدَ من ربه ليَنْعَم بمحبته، يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ البقرة.

فإذا كان الفجرُ يَعقُبُ الليلَ فيمحو ظلامَه، فإن الاستغفار هو تلك الرحمةُ التي تزيل من النفس ظلمات الذنوب حتى تصل بالعبد إلى فجر المغفرة.

وعند ارتكابنا الإثم – الذي هو من مقتضى بشريتنا – علينا أن نتوجه مسرعين إلى الله تعالى فنتوب إليه ونستغفره، فقد مدح سبحانه عباده المتقين فقال فيهم:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾ آل عمران.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الذاريات.

وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ:

(إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ» ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين)[٢٠].

ويبين النبيُّ ﷺ في حديثٍ آخرَ طرفا من فضائل الاستغفار، فيقول:

(مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[٢١].

ومن ناحيةٍ أخرى فالتوبةُ والاستغفارُ هما وسيلةُ المؤمن للنَّجاة من عذابات الدنيا والآخرة، يقول النبيُّ ﷺ:

٢٠. سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، ٣٣٣٤ .

٢١. سنن أبي داود، باب الوتر، ١٥١٨ .



(أنزلَ اللهُ عليَّ أمانينِ لأمَّتي ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣ ﴾ الأنفال، **فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ إلى يومِ القيامة)**[٢٢].

وإن أوقات السَّحَر بما تحمله من روحانيات هي بمثابة النبع الذي تفيض منه فيوضات الكرم والإحسان من الحق سبحانه على عباده، وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ:

(يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[٢٣].

وحتى نصل بالتوبة إلى مرتبة التوبة النصوح، ويقبلها اللهُ تعالى منا فعلينا أن نراعي الأمور الآتية:

فلابد أن يكون الاعتراف بالعجز أوَّل ما يستقر في قلب التائب، فإن بقي في باطن أحدنا ذرةٌ من الأنانية

---

٢٢. سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، ٣٠٨٢ .

٢٣. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، ٧٥٨ .

فستحُولُ بيننا وبين الرحمة الإلهية التي نرجوها من التوبة، فالاستغفار ليس إحصاءَ كلماتٍ نرددها باللسان، بل هو تضرعٌ يصاحبه شعور عميق بالعجز، راجين نحن العبادَ الضعفاءَ من الله العظيم القادر أن يُمطر علينا من فضله ويجود من كرمه ويقبلنا ويتوب علينا.

ثم إن التوبة تقتضي الصدق والإخلاص شأنها في هذا شأن سائر الأعمال الصالحة الأخرى، ولذلك كان بعض الصالحين مرهفي الإحساس يتوب من التوبة، فيلتجئ إلى الله تائبا من التوبة التي خالطها غَرَضٌ لغير الله عَزَّوَجَلَّ، راجيا أن يمن عليه بالتوبة النصوح التي ذكرها القرآن الكريم، مستعصما به من النفس والشيطان الَّذَينِ إن عجزا عن فتنة القلب تظاهرا بأنهما في جانب الحق، وطفقا يوحيان بالأمور الحسنة والطيبة كأنهما المرشد المخلص، فيوقعا العبد في ورطة ويذهبا بتوبته.

وتقتضي التوبة كذلك الندمَ الصادق والعزمَ الأكيد على ألا يعود المرءُ مرةً أخرى إلى الإثم الذي ارتكبه، ويرجو



الله أن يتجاوز عنه، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿....فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ لقمان.

ولأهمية التوبة والاستغفار على النَّحوِ الذي بينَّاه آنفاً كانت كل الطرق الصوفية تستهلُّ تضرعها وقت السحر بالاستغفار للارتقاء بالروح إلى أسمى مرتبة.

و من أبلغ أوراد الاستغفار (أستغفر الله العظيم).

- **التوبة العظيمة.**

أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظيمَ الكَرِيمَ الذي لا إلهَ إلا هوَ، الحَيَّ القَيُّومَ وأتوبُ إليه، ونسألُه التَّوبَةَ والمَغْفِرَةَ والهِدَايةَ لنا، إنِّهُ هوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، توبةَ عبدٍ ظَالمٍ لنَفْسِهِ، لا يَمْلِكُ لنفسِه موتاً ولا حياةً ولا نُشُورًا.

- **سيد الاستغفار**

و العبد من جانبٍ يستشعر ذنوبه وهو يستغفر اللهَ العظيم ويرجو عفوه، و هو ينكر ذاته، ومن جانب آخر

يوثق عبوديته لله تعالى ويجدد عهده له بكلماتِ سيدِ الاستغفار التي علمنا إياها الرسول الأكرم ﷺ في الحديث الشريف:

(سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)[٢٤].

فالعبد حين يطلب العفو بـ (التوبة العظيمة) أو بـ (سيد الاستغفار) – مدركا ما ارتكبه من جُرمٍ – يكون مقرا بعبوديته لربه، أو بتعبير آخر يكون قد جدد العهد الذي أخذه على نفسه في "يوم ألست بربكم".

---

٢٤ .صحيح البخاري، كتاب الدعوات، ٦٣٠٦، و تتمة الحديث (... وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ).



ثانيا: كلمة التوحيد.

لا إلهَ إلا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ، محمدٌ رسولُ اللهِ الصَّادِقُ الوَعدِ الأمِينُ.

كلمةُ التوحيد إعلانٌ بأنه لا يستحق العبادةَ في هذا الكون شيء سوى الله أبدا، وهي أيضا شعورٌ بالفناء في الله تعالى وأنه هو وحده الباقي بينما سيفنى كل ما عداه.

روي عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال مخاطبا أصحابه: (**جددوا إيمانكم**)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: (**أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**)[٢٥].

و كلمة التوحيد لا تقتصر على اللفظِ وحده مجرداً عن الوجدان، فهي لابد أن تستقرَّ في أعماق القلب شعوراً، وفي فضاءات العقل يقيناً، بعيدا عن كل انحراف أو هوى، ومن هنا كان علينا أن نحفظَ قلوبنا وعقائدنا من أهواءِ النَّفسِ وتقلُّباتها.

٢٥. المستدرك على الصحيحين، كتاب التوبة، ٧٦٥٧؛ مسند الإمام أحمد، ٨٧١٠.

وكلمة التوحيد كذلك لا يقتصر العبدُ على تردادها في الأسحارِ، بل عليه أن يعيشها واقعا في النهارِ، فكلما استقرت كلمة التوحيد في أعماقنا كنا أبعدَ عن المعاصي وأقربَ للهِ تعالى.

وكلمة التوحيد كذلك تزيدنا قرباً من رسولِ الله ﷺ حتى نوفيَه حقَّه بالاقتداءِ به والتأسي بحاله، فلابد للمريدِ حين يرددُ كلمةَ التَّوحيدِ أن يتمثلَ هذه المعانيَ الساميةَ كلَّها.

فالحقُّ سبحانه وتعالى يريدنا أن نحيا بكلمة التوحيد حتى نزداد له حبا وتعظيما، فلا نعظم غيرَه ولا نعبدَ سواه، ولا نسمح لأيِّ شيءٍ أن يتحول إلى وثن في قلوبنا، فالله تعالى يريد لقلوبنا أن تتطهَّر عن كل وثنٍ حتى تكون له وحده، لا ترجو ولا ترهب ولا تتعلق إلا به سبحانه.

وإذا ما عشنا كلمةَ التوحيدِ على النَّحوِ الذي ذكرناه فإن صفاتِ اللهِ تعالى تتجلى علينا، فيصيرِ لنا من أسماءِ الله تعالى وصفاتِه نصيباً، فحين يتجلى اللهُ علينا مثلاً باسمه "**الرحمن**" ترى قلوبنا تفيض بالرحمة لكلِّ خَلْقِ الله



تعالى بلا استثناء، وحين يتجلى الله علينا بصفة "**العفو**" فإنك ترى النفس تعفو وتصفح عن كل أذى أو تقصير في حقها، ولا يبقى فيها مكان لحقدٍ أو انتقام من المؤمنين، وإذا تجلى اللهُ علينا باسمه "**الودود**" فستنبعثُ أعماقُنا بمحبة صادقة لكل شخص أو شيء ما خلا أعداء الله تعالى، فلا يخالفُ أحدٌ في أنَّ عداوةَ هؤلاءِ قربةٌ للهِ تعالى.

وخلاصةُ القولِ أنَّه لو أظلَّتنا روحانياتُ التوحيدِ التي تبدأ معنا في الأسحار لتَصْحَبَنَا في نهارنا وليلنا، فستتحول أنفاسنُا الأخيرةُ حين نفارق هذه الدنيا — بفضل الله تعالى — إلى سعادةٍ لا يعدلها سعادة.

ثالثا: الصلوات الشريفة:

اللهمَّ صَلِّ على سيدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وبارِك وسَلِّم.

يشيرُ المولى سبحانَه وتعالى في قوله:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ ﴾ النساء، إلى مكانةِ حبيبه

المصطفى ﷺ لديه، فاللهُ ﷻ يأمرُ المؤمنين بطاعةِ النبي طاعةً كاملةً كما يأمرُهم بطاعتِه هو سبحانه.

فإدراكاتنا البشريةُ الكليلةُ لا تَقوَى على معرفةِ قَدْرِ النبي ﷺ وشرفِه حقَّ المعرفة، فكما أننا نعجز عن أن نجمع البحرَ في كأس، فكذلك نعجز عن أن ندركَ ونوضِّحَ قدرَ النبي المصطفى ﷺ مهما جمعنا في وصفِه من صفاتِ التعظيم والإجلال.

وتعرِض الآيةُ الكريمةُ الآتيةُ لهذه الحقيقةِ على النَّحوِ الآتي:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الأحزاب.

فالآية الكريمة تُوجِبُ – بأمرٍ حثيثٍ من الله تعالى – على المؤمنين جميعاً أن يصلوا ويسلموا على النبي ﷺ، وأن يشرفوا بالانضمام لله تعالى وملائكته وهم يصلون على النبي، وذلك تعليما لهم أدبَ التعامل مع النبي ﷺ وطريقةِ تعظيمِه وتوقيره.

ومن مقتضيات الإيمان كذلك أن يحاول المؤمن جاهدا تمثُّلَ حالِ النبي المصطفى ومتابعته

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران.

فمما لا شك فيه أنَّ المؤمنَ لا ينالُ حَظَّاً من شرف اتِّباعِ النبي المصطفى ﷺ مالم ينزِع من نفسه كلَّ تعلقاتِها بصورٍ نفسيةٍ أخرى، فالنَّبيُّ ﷺ هو الأسوةُ الحسنةُ للبشريةِ جمعاء من أدناها لأعلاها، والمؤمن واجدٌ في شخصية النبي ﷺ جواباً على كل سؤال وقدوة في كل حال، وما عليه إلا أن يُقبِل على شخصية النبي بتأدبٍ ليغرِفَ من معينها ويتعرف على عظمتها.

وكذلك تأتي (محمد رسول الله) بعد (لا إله إلا الله) لتشكل كلمةُ التوحيد مع الصلوات الشريفة أساسَ المحبة وذروةَ القُرْبِ من اللهِ تعالى، فالمؤمنُ لا ينال سعادةَ الدارينِ ولا يظفَرُ بخيرهما إلا بهذه المحبة القدسيةِ.

وتكتسبُ الصلواتُ الشريفةُ أهميةً عظيمةً، فبها تَنْقِشُ يدُ القدرةِ الإلهيةِ على القلبِ فيوضاتِها وتجلياتِها، وبها تقوى رابطةُ المؤمنِ مع النبي ﷺ فيصحبُه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

حلَّ فيه – وخاصةً أوقاتُ السَّحَرِ المباركِ – حتى ينالَ من بركاتِه وروحانياتِه.

و ليس أدلَّ على أهمية الصلاةِ على النبي ﷺ من أنَّ اللهَّ ﷻ أمرنَا بالصلاةِ على نبيه حتى في صلواتنا المفروضة مع أنها ينبغي أن تكون خالصةً لله وحدَه، لذلك نقرأُ في التحياتِ في قعود الصلاة (السلامُ عليكَ أيها النبي ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه)، فسلامُنا على رسولِ الله ﷺ أثناءَ الصلاةِ لا يُبطِلُ الصلاةَ، أما إذا سلمنا على أيِّ شخصٍ آخرَ أثناءَ الصلاةِ فتَبْطُلُ صلاتنا وتجبُ إعادتُها.

وقد جمع أولياءُ الله تعالى الذين عاشوا حياتهم متمثلين حقيقةَ النبي ﷺ، وحصروا فضائلَ التقربِ إلى رسولِ الله ﷺ ورتبوها وَفْقَ النِّقَاطِ الآتية:

١. أنَّ طاعةَ العبد لله تعالى ولرسوله ﷺ هي المرادُ بصلاته على النبي، وهي – بهذا المعنى – تقابل صلاة الحق ﷻ وصلاة ملائكته على النبي ﷺ وتوافقها، وأما من حيث المعنى فصلاة الله على النبي ليست كصلاة الملائكة

ولا كصلاة العبد، وإنما المرادُ بصلاة الله تعالى على النبي تعظيمُه وتشريفه، والمرادُ بصلاة الملائكة الدعاءُ له بالرحمة والمغفرة، وأما صلاةُ العبد فهي دعاءٌ للنبي ﷺ وترَحُّمٌ.

٢. الصلاةُ على النبي ﷺ وسيلةٌ لمحوِ الذنوب والتطهرِ من الخطايا، فقد ورد في الحديث الشريف:

(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ)[٢٦].

وفي حديث آخر أنه جاء النبيُّ ذاتَ يومٍ والبِشرُ يُرَى في وجهه، فقال:

(إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلُ ﷺ، فَقَالَ: أَمَا يُرْضِيكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ لَا يُصَلِّيَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلَا يُسَلِّمَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا)[٢٧].

٢٦. سنن النسائي، باب فضل الصلاة على النبي، ١٢٩٥.

٢٧. سنن النسائي ، باب فضل الصلاة على النبي ، ١٢٩٧ .

٣. الصلاة على النبي ﷺ تجعلُ صاحبها في معية النبي يوم القيامة، قال النبي ﷺ:

(أولى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً)[٢٨].

٤. يردُّ نبينُا ﷺ السلامَ على مَن يصلي ويسلمُ عليه، وقد ساق لنا النبي هذه البشرى في الحديث الشريف، فقال:

(مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ)[٢٩].

وإذا تأملنا ما يحمله سلامُ أحد العظماء على أحدنا من سرورٍ له، لما صَعُبَ علينا أن نتصوَّر ما يحملُه إلينا وإلى الأمةِ كلِّها سلامُ رسولِ الله ﷺ من سعادةٍ وراحةٍ عظيمةٍ.

٥. إن لله ملائكةً تبلغ النبي ﷺ أسماءَ من يصلي عليه وذلك زيادة في تشريفهم، وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

(إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ)،[٣٠]

---

٢٨. سنن الترمذي، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي، ٤٨٤.

٢٩. سنن أبي داود، كتاب المناسك، ٢٠٤١ .

٣٠. سنن النسائي، باب السلام على النبي، ١٢٨٢ .



وفي حديث آخر:

(.... وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)[٣١].

٦. كلما ازداد المؤمنُ صلاةً على النبي ﷺ ازدادَ تشبُّها به وقرباً منه، وابتعد أكثر فأكثرَ عن العادات الذميمة، لأنه فضَّل محبةَ الله ورسوله على سائر المحابِّ الأخرى.

٧. على المؤمن أن يعلم أنه كلما ازداد حبا للنبي ﷺ وشغفا به ازدادت محبةُ النبي له.

٨. إننا إذ نصلي على النبي الكريم إنما نسدد بعضا مما للنبي ﷺ من فضلٍ في أعناقنا، ففضل الله تعالى ونعمه علينا كثيرة لا تحصى إذ جعلنا من أمة محمد ﷺ.

٩. صلاتنا على النبي ﷺ وسيلةٌ نستمطرُ بها رحمة الله تعالى علينا، وفي ذلك يقولُ النبي ﷺ:

(مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا)[٣٢].

١٠. الصلاةُ على النبي ﷺ وسيلةٌ يذكِّرُنا اللهُ بسببها – كرماً منه – شيئاً نسيناه.

---

٣١. سنن أبي داود، كتاب المناسك، ٢٠٤٢.

٣٢. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، ٤٠٨.

١١. الصلاة على النبي ﷺ وسيلة نستشفع بها لقبول دعائنا: (سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو فِي صَلاَتِهِ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **عَجِلَ هَذَا، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ**)[٣٣].

وفي حديث آخر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

(كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ)[٣٤].

١٢. الصلاة على النبي ﷺ تقي المسلمَ من وعيدِ اللهِ وسَخَطِهِ، فقد جاءَ في الحديث:

(رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَانْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ)[٣٥].

٣٣. سنن الترمذي، أبواب الدعوات، ٣٤٧٧.

٣٤. شعب الإيمان للبيهقي، باب تعظيم النبي و توقيره، ١٤٧٤.

٣٥. مسند الإمام أحمد، ٧٥٤١ .



وفي حديث آخر:

(البخيلُ مَنْ ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ)[٣٦]

وفي حديث آخر:

(مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ)[٣٧].

١٣. يكفي اللهُ تعالى المداومين على الصلاة جميعَ همومهم ويرفعُ عنهم كرباتهم، فقد جاء عن سيدنا أُبيٍّ بن كعبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: «**مَا شِئْتَ**». قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قُلْتُ: النِّصْفَ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ، قَالَ: «**مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا قَالَ: «**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**»[٣٨].

---

٣٦. سنن الترمذي، أبواب الدعوات، ٣٥٤٦.

٣٧. سنن ابن ماجه، باب الصلاة على النبي، ٩٠٨.

٣٨. سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة، ٢٤٥٧.

وهكذا نرى أن الصلاة على النبي ﷺ تربِطُ المؤمنَ بعلاقةٍ روحيةٍ خاصة مع النبي، وتهبه من أنواره وفيوضاته، ولكنَّ ذلك يتوقف على مدى محبة العبدِ للنبي وإخلاصِه في صلاته عليه.

وحتى نفوز بأعظم الأجر والثواب من الصلاة على النبي ﷺ فعلينا أن نُسلم قِيَادَنَا لفخر الكائنات ونخضع لعظمته، ونبذل قصارى الجهد حتى نكون أمةً تليق به.





الفصل الرابع

التفكر

إنَّ التفكرَ مهارةٌ حياتيةٌ وَهبها اللهُ تعالى للمخلوقات كافة وليس للإنسان فحسب، فكلُّ مخلوقٍ يستخدم فكرَه بما يتناسب مع حياته وخِلقته، ولكنَّ أولَ ما يشغل فكر المخلوق هو تأمين احتياجاته الأساسية من مأكلٍ ومشربٍ وتناسلٌ والعيش في وضع أكثر راحة، وهذا هو القدر الذي يقف عنده فكرُ الحيوانات ويَنْصَبُّ عليه، ولا يتعداه إلى ما وراءه من أمور تتعلق بالكون والمستقبل لأن مهارة التفكير التي وهبها الله تعالى لها إنما تفي بحاجاتها فحسب.

أما الإنسانُ، فله شأنٌ آخر، حيث يقع على الإنسان عبءُ القيام بمسؤولياتٍ عِظَامٍ ومهامَّ جِسَامٍ بوصفه أشرف المخلوقات وأسمى الكائنات، وللوفاء بهذه المهمة الجليلة فقد تمتع بمهارةٍ متقدمةٍ في التفكير.

فالإنسانُ يتميز عن سائرِ المخلوقات أنه يتجاوز التفكيرَ في حاجاته الوجودية من مأكلٍ ومشربٍ وتناسلٍ إلى التفكيرِ بحاجاتٍ روحيةٍ نفسيةٍ، وبذلك تتكشف له أسرارُ ذاته، ويسمو إلى جنان الصلة بالله والتعرف على تجلياته وجماله.

فإذا أهمل الإنسانُ ما وهبه اللهُ تعالى من نعمةِ التفكُّر، ولم يسعَ إلى الترقي في مدارجِ الكمال البشري الذي أراده اللهُ له فإنه يتيه بين أهواء النفس وشهواتها، فينسلخ عن إنسانيته ويهوي إلى درك الحيوانات.

ويلخص أحدُ المفكرين – الذين أدركوا هذا العمق الروحي – هذه الحقيقة، فيقول: (هذا الكون إنما هو تفكرٌ، فالعقلاء يتفكرون في بديع صنعِ الله فيه، والحمقى تشغلُهم شهواتهم وملذَّاتهم عنه).

فالذي يجعل من الإنسان إنسانا إنما هو هذا السمو، أن يسمو في فكره عن حاجاتِ المادية ليلبي نداءَ الروح، فالله عَزَّوَجَلَّ يريد لعباده أن يكونوا على مستوى عالٍ من



رهافة الشعور في إيمانهم وعبادتهم، ولن يتمَّ هذا إلا بما ذكرنا من السمو في التأمل والتفكر.

لذلك كان التعمقُ في التفكر والسمو بالروح من أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق العبد، فبسموِّ الروح يَرِقُّ قلبُ العبد ويخشع في عبادته ويترقى في كمالات الأخلاق والمعاملات.

وحين نحلِّق في فضاءات الكون ونتفكر في أسراره نجد أنفسنا أمام الأسئلة الوجودية الكبرى، والتي تستتر إجاباتُها في أعماق أرواحنا، فمن أين أتينا؟ وإلى أين المصير؟ ولماذا خلقنا؟ وكيف نعيش؟ ومتى ستنتهي رحلتنا هذه؟ وما سر الموت الذي يختمها؟ وما هذا الكون الذي يحيط بنا؟ مَن خلقه ؟ ومَن يدبر أمره؟.

والتفكُّر في هذه الأسئلة والبحث عن إجاباتها يقود العبد إلى الفناءِ في الذات الإلهية والشعورِ بالعجز المطلق أمام قدرتها الغالبة، فيعلم يقينا سُخف من يدَّعي أن له وجودا أو كيانا أمام هذه العظمة الإلهية المطلقة، وعندها

يتحقق العبد بعبوديته لله تعالى، ويتلقى منه سبحانه فيوضات رحمته وتجليات صفاته، وبهذا التفكر يدرك العبد أنه إن كانت الكعبةُ المشرفة قبلةَ الجسد في الصلاة فإن اللهَ تعالى هو قبلةُ الروح في تفكرها.

ولهذا يقول سيدُنا علي رضي الله عنه:

(لا خير في صلاة لا خشوع فيها، ولا خير في صوم لا امتناع عن اللغو فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها، ولا خير في علم لا ورع فيه...) (ابن حجر، المنبهات، ص ٣١)

ويقول أبو الدرداء:

(تفكر ساعة خير من قيام ليلة) (البيهقي، شعب الايمان، ١، ٥٣١/٨١١)

فالتفكُّر من شأنه أن يرتقيَ بالعبادةِ ويعمِّق الإحساسَ بها ويزيدَ الخشوع فيها والشكرَ عليها.

والعبادةُ – حين تؤدَّى بخشوع يرقُ الشُّعور، وبتفكرٍ ينفُذ إلى القلب – ضروريةٌ للمسلم كما العقيدة الصحيحة، فبها يزداد العبدُ قرباً من مولاه ورسوخاً في الإيمان به، وهذا من أهمّ ما تميَّز به الصحابةُ الكرامُ والمؤمنون الصادقون، أنهم ملَكوا قلوباً سلميةً وأرواحا متبتلة.

فربنا جل وعلا يأمرنا أن نتفكر في قدرته وعظمته الإلهية، وفي كرمه وفضله على خلقه، وأن نتدبر أسرار وحِكَم نظام هذا الكون العظيم، وأن ندرك – نتيجةً لهذا التفكر – أن هذه الدنيا فانيةٌ زائلة وأنَّ الحياة الباقية هي الدار الآخرة، فنكون عندئذ من عباده المتقين والمحبين له سبحانه، المتواضعين لعظمته والزاهدين بغيره.

يقول سيدنا بشرٌ الحافي رحمه اللهُ تعالى: (لو تفكَّر الناسُ في عظمة الله تعالى لما عصوه) (ابن كثير، تفسير، آل عمران، ١٩٠).

و إلى جانب الآيات المبثوثة في أرجاء الكون والتي لا تُعدُّ ولا تُحصَى نجد الله تعالى يعرض في كتابه العظيم أمثلةً تدعو عبادَه للتأمل والتفكُّرِ في الكون:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر.

ويصوِّر القرآنُ الكريم الذين يقيدون عقولهم عن التحليق في فضاءات التفكُّر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ محمد.

وتقوم حياة نبينا ﷺ نموذجا صارخا على ضرورة التفكُّر للوصول إلى الكمال الروحي الذي يريدنا عليه ربُّنا سبحانه وتعالى، فنبينا كان يُمضي لياليه عابداً متبتلا حتى تورمت قدماه، وكان قلبه متيقظا دائما وإن نامت عيناه، ولم يغفل لحظةً واحدةً عن ذكر الله تعالى ومراقبته والتفكر في آلائه.

وفيما يلي تعرض لنا أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها مثالا على رقة قلب النبي ﷺ، فتقول:

(لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي، قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟!، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ



وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ (آل عمران)[٣٩].

وهكذا ظل رسول الله ﷺ ليلة نزول هاتين الآيتين يبكي حتى الصباح بدموع تغبطه عليها قطرات الندى فوق الورود، وكذلك تكون هذه الدموع التي يسكبها المؤمنون – بتفكرهم في تجليات القدرة الإلهية – زينة في لياليهم الفانية، وسراجا في ظلمات قبورهم، وبشرى بين يدي جنانهم المنتظرة.

لقد بدأ رسول الله ﷺ حياة التفكر والاعتكاف في غار حراء قبل أن يَشرُفَ بمهمة الرسالة، وكان تعبُّده في غارِ حراء وهو يشاهد الكعبة يشبه تفكُّرَ جده إبراهيم وهو يتأمل في ملكوت السموات والأرض، يستوحي من القدرة الإلهية مواعظ وأسرار هذا الكون العظيم.

٣٩. صحيح ابن حبان، باب التوبة، ٦٢٠.

وعلى هذه الحال من الحزن والهم امتدت أيام رسول الله ﷺ، فكان حديثه ذكرا وصمته فكرا.

فقد جاء في الحديث الشريف:

(إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ يَكُونَ نُطْقِي ذِكْرًا، وَصَمْتِي فِكْرًا، وَنَظَرِي عِبْرَةً)[٤٠].

(تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ)[٤١].

(... وَلَا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ...)[٤٢].

والخلاصة... أنه لابد – حتى نتأسى بنبينا المصطفى ﷺ ونكون على سنته ونهجه – أن نجعل التفكر سلوكا وعادة لا نحيد عنها، وأن نصغي بقلوبنا للحِكَم العميقةِ والأسرارِ المنثورة في جنبات الكون.

فلن نكتشف الروحَ وأسرارها، ولا الكونَ وآياته إلا عن طريق التفكر، ولن نطل على هذا العالم من نافذة الإيمان إلا إذا نظرنا إليه بعين العبرة والتأمل.

---

٤٠. مسند الشهاب، ١١٥٩.

٤١. المعجم الأوسط للطبراني، ٦٣١٩.

٤٢. شعب الإيمان للبيهقي، باب تعديد نعم الله، ٤٣٢٦.



وعندها ستنساب فيوضات الحكمة الربانية في قلوبنا، وتشع أنوارها على جوارحنا، وهذا مراد التصوف من العبد، وليس مراده التلفعَ بالخرقة والتغنيَ بالأوراد.

فالتصوف قبل أي شيء هو تفكرٌ فيما علينا من مسؤوليات، ومحاسبة أنفسنا بأنفسنا، والسير إلى الله بوعي وإدراك.

التصوف هو التخلص من أهواء النفس كلها، والتعمق في التفكر والتأمل الروحي، والترقي من مرحلة إلى التي تليها وصولا إلى الوصال الأبدي.





التفكر في الموت

تقف القلوب مضطربة بين حياتين مختلفتين كلَّ الاختلاف، كالقشعريرة التي تنتاب الإنسان سرورا بالحياة والقشعريرة التي تهزُّ كيانه على أعتاب الموت، فالقشعريرة واحدة إلا أن الإحساس بها يختلف كل الاختلاف بين الحالتين.

ومن دون أن ندرك المعنى الحقيقي للحياة والموت اللذين يتعاقبان باستمرار لن نستطيع أن نعي سر الخلق وحِكَم الله فيه، ولن ندرك الماهية الحقيقة للإنسان.

فالموتُ – الذي يأتي خاتمةَ رحلةِ كلِّ امرئ في هذه الحياة – يظل لغزا عصيّا على الحل، ودون إدراك سر الموت والحياة التي يختمها لن ندرك حقيقة الإنسان وحكمة إيجاده وخلقه في هذا الكون.

يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ الملك.

ويقول سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنبياء.

فالدنيا دار الابتلاء والاختبار الإلهي، وأما الموت فهو قانون انتقال الخلق من دارٍ إلى دار، كما يقول مولانا جلال الدين الرومي: (موتوا حتى تبعثوا)، فالقلب لا ينبعث من غيبوبته إلا عندما يتخلص من كل أهواء النفس التي تأسره، ولذلك كان يوصي النبي ﷺ أمته:

(أَكْثِرُوا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذَّاتِ)[٤٣].

والتفكر في الموت لا يكون إلا بتذكره، وهجر شهوات النفس وأهوائها قبل أن يأتي، والاستعداد – بدافع الإيمان – للقاءِ الله تعالى والوقوفِ بين يديه طوعا لا كرها.

وقد رأى الحسن البصري شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن:

«يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول:

٤٣. سنن الترمذي، أبواب الزهد، ٢٣٠٧.

أي موعظة؟ ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادي» (الزهد للحسن البصري، ص٢٠)

ولكن آمال الإنسان لا نهايةَ لها، وأمانيه الفانية لا يختمها إلا الموت، كورقة تلقيها الريح على جدار قبر.

والمقابرُ مليئةٌ بآباء وأمهات، وأبناء وبنات، وتغص بالكبير والصغير والعدو والقريب، وقد انتهت حياتهم واجتمعت كلها عند نقطة واحدة، فكل حياة في الدنيا – مهما اختلفت بين غنى وفقر – ستجتمع لا محالة عند الموت، فهو القنطرة الوحيدة للمرور من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة.

وعندما يدهمنا الموت فلا مكان ولا زمان نلجأ إليه هربا منه، وتوضح الآيات لنا ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الجمعة.

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ ق.

وإنَّ الكلماتِ – مهما ارتقت في سلم البيان – لَتَعجَزُ عن وصف الموت وهيبته، وإزاءَ هذا العجز يظلُّ الصمت المعقود على شفاه الموتى الجامدة أفصحَ واعظ، ويصير السكون الذي يكسو حجارة القبور المهجورة أبلغَ تعبير عن سر هذا الموت وهو يلفُّ الناسَ جيلا بعد جيل.

وفي المقابل لا تجد تأثرا بهذه الحال أعمق من تلك الشهقات التي تزفر بها قلوب الأحياء والدموع التي تحرق أحشاءهم ألما على الفراق.

ولذلك عمل أجدادُنا على تنظيم المدن بما يتوافق وهذه الغاية، فجعلوا المقابر داخل المدن وعلى قوارع الطرق وفي أفنية المساجد، حرصا منهم على تذكر الموت دوما وعلى كل حال.

فالدنيا – بما فيها من زينة وزخارف – سرابٌ خادع تأسِر الإنسانَ وتميت قلبه، أما الآخرة فهي – في الحقيقة – حياة لا موت فيه.

ولكن عجبا للإنسان، كيف لا يستخلص العبرةَ إلا بعد أن تغيض نضارة كل حيٍّ على مذبح الزمان !

وكم هو مُرٌّ ذلك الخداع !!

حين ينغمسُ الإنسان في شهواتٍ فانية ورغباتٍ زائلة، فيَحرِمُ نفسَه في سبيلها من مستقبل حقيقي لا من سراب خادع، ومن حياة أبدية لا من لحظة عابرة !!!

ولكنَّ حياة الغفلة تستبد بالإنسان منذ أن تكون لَعِباً بريئاً في الطفولة إلى أن تصير شهوةً عارمةً في الشباب إلى أن تصبح انغماساً بالعمل في الرشد إلى أن تستقر حسرة وندامة في الشيخوخة.

إنَّ الموتَ قيامةُ كلِّ حيٍّ فينا، فلنستيقظ من غفلتنا قبل أن تقوم قيامتُنا حتى لا نكون من النادمين، فكلٌّ منا سيلقى ملكَ الموت – لا محالة – في زمانٍ ما ومكانٍ ما، ولا نملكُ حينها – مهما أوتينا من قوة – أن نَفِرَّ منه، ولا نستطيعُ بعدَ الموت أن نعودَ إلى الحياة من جديد أو أن نستجيرَ من شدائد يوم البعث فإنه لا مجير يومئذ من أمر الله، ومهما بحثنا فلن نجد إلا ملجأ الرحمة الإلهية، فعلينا ألا نضيع وقتنا في البحث عن غيره، وأن نستظل بظلال

قوله تعالى:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات.

وترسم الآياتُ الآتية لوحةً معبرةً لأولئك الذين يأملون في الغد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾ المنافقون.

ولكنَّ الغريبَ أنَّ الإنسانَ يخادع نفسه في هذه الدنيا التي يحل عليها ضيفا فترة من الزمن، فهو مع أن جنازات الموتى تمرُّ أمام ناظريه كلَّ يومٍ إلا أنه يظن نفسه في منأى عنها، ويحسِبُ أنَّه يملك دنياه مع أنه سيفقدها في أي لحظة.

والإنسان يخدع نفسه حين يتعامى عن الموت مع أنه يرافقه منذ اللحظة الأولى التي استقرت فيها الروح في الجسد، فالإنسان جاء من العدم وسيعود إلى العدم، وهو في هذه الدنيا إنما يعبُر الطريق – الذي لا يغتنمه كثير من الناس – بين هذين العدمين.

وسيأتي يوم تنسلخ الروح عن الجسد الذي حلَّت فيه يوما لتبدأ رحلةً جديدة في القبر الذي هو أول منازل الآخرة، والآية الآتية تقدم لنا النصيحةَ على النحو الأمثل، وتعبر عن أن أي لحظة تمرُّ من حياتنا إنما تقربنا إلى لحظة الحقيقة أكثر فأكثر:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يس.

فأدقُّ وصفٍ توصفُ به الدنيا إنما هو الغدر، فهي لا تكاد تعطيك شيئا باليمين حتى تسترده منك بالشمال ثم تهوي بك في وادي سحيق، والدنيا كالظل، إن أدرت أن تقبض عليه هرب منك، ولكنه لا يتركك مهما حاولت أن تهرب منه.



وهكذا يمضي العمرُ أمامَ ناظريك بسرعةٍ خاطفة بينما أنت كلَّ يوم تمنّي نفسَك أن تحصّل على ما فاتك البارحة، فالدنيا كالعشيقة الخائنة كلما قدَّمتَ لها شيئا طلبت منك المزيد حتى توقِعُك في شراكها، ثم ما تلبث أن تغدُر بك، فهي لا وفاء لها ولا عهد، وتضحي بكل من يتعلق بها عند أقرب فرصة تلوح لها.

سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ**»[٤٤].

وقال كذلك: (... **وَلْتَذْكُرِ الموْتَ والبِلَى، ومَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنيا...**)[٤٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:

(أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)[٤٦].

٤٤. سنن ابن ماجه، باب ذكر الموت، ٤٢٥٩.

٤٥. سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة، ٢٤٥٨.

٤٦. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، ٦٤١٦.

وكان مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى وهو من كبار علماء التابعين يقول: كانَ ابْنُ عُمَرَ ، يَقُولُ:

(إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ)[٤٧].

وقد روي عن سيدنا أنس بن مالك ﵁ أنه قال: إن الأرض تنادي كل يوم عشر كلمات وتقول: يا ابن آدم، تسعى على ظهري ومصيرك في بطني، وتعصي على ظهري وتُعذَّب في بطني، وتضحك على ظهري وتبكي في بطني، وتأكل الحرام على ظهري وتأكلك الديدان في بطني، وتفرح على ظهري وتحزن في بطني، وتجمع الحرام على ظهري وتذوب في بطني، وتختال على ظهري وتَذِلُّ في بطني، وتمشي مسروراً على ظهري وتقع حزيناً في بطني، وتمشي في النور على ظهري وتقعد في الظلمات في بطني، وتمشي في الجماعة على ظهري وتقعد وحيداً في بطني) (ابن حجر، المنبهات، ص ٣٧)

٤٧. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، ٦٤١٦.



فالموت هو المشهد الأخير في مسرحية الحياة، وهو المرآة التي تعكس للمرء عاقبته، فمن عاش في الدنيا في إسار الشهوات ظهر له القبر دهليزا مظلما، ويصير – في هذه الحال – مجردُ تَذَكُّرِ الموت ألما وعذابا لا يألو المرء جهدا أن يتهرب منه.

أما إذا انعتق المرء من إسار شهواته وأهواء نفسه، وأطلق العِنان لروحه تسبح في عوالم الآخرة، فيكون الموت في هذه الحال هو الشرطَ الحتمي للقاء الله تعالى، ويصير الانفعال به كاضطراب الحبيب قبل لقاء حبيبه.

وهذا الموت هو الذي يسميه مولانا جلال الدين الرومي بـ (ليلة الزفاف)، فالموتُ عند الصوفية لحظةُ سعادة لما ينتظرك بعدَها من لقاءٍ بالحبيب، بينما يراه كثيرٌ من الناس حادثا مُفزِعًا لما يكتنفه من مجهول.

ولا يصل المرء إلى هذه المرتبة – من اعتبار الموت لحظةً سعيدةً من لحظات حياته الطويلة – إلا حين يتخطى عوائق النفس، ويطهرها بالتوبة والزهد والقناعة والتوكل والذكر والصبر والمراقبة والرضا عن الله تعالى.

ولكن هذا الرقي الروحي يظلُّ رهنا بأن يتفكر الإنسان بالموت دائما كلما أحس بخنَاق الغفلة يشتد من حوله، ولذلك كان يقول الرَّبِيعُ بن أَبِي رَاشِدٍ:

«لَوْ فَارَقَ ذِكْرُ الْمَوْتِ قَلْبِي لَخَشِيتُ أَنْ يَفْسُدَ وَلَوْلَا أَنْ أُخَالِفَ مَنْ كَانَ قَبْلِي لَسَكَنْتُ الْجَبَّانَةَ حَتَّى أَمُوتَ»

(البيهقي، الزهد الكبير، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٦، ص. ٢١٢)

فالإنسان في هذه الدنيا يعيش مضطرباً بين أحوال النفس وتجاذباتها، فإذا جاء الموت انتهى كل ذلك، فالموتُ بدايةٌ حتميةٌ لرحلةٍ جديدة، ولابدَّ لنا قبل المضي في رحلتنا هذه أن نعد النفس لها جيدا، فنراجع صحة القلب وسلامة معداته، ونتخلص من شوائب الفزع والقلق التي تخوفنا منه.

وعندها نتمثل بقولهم (موتوا قبل أن تموتوا) فنرحل عن أهوائنا وتعلقنا بالدنيا، لنستعد لرحيل الدنيا عنا، فنحقق بذلك رضا الله تعالى وننال شرف محبته ونتهيأ للقائه.

الفصل الخامس

الــرابطة

للرابطة في اللغة معانٍ عدةٌ منها: العلاقة، الصلة.

وعند التمعن في حقيقة المعنى نجد أنه لا ينفك عن الرابطة أي إنسان في هذا الكون أبدا، فالرابطة ضرورية للاستعانة والاستغاثة مادةً كانت أو معنى.

وبتعريف آخر فإن الرابطة عبارة عن المحبة، وهي استمرار العلاقة بين القلوب ندية مفعمة.

وللرابطة أنواع ثلاثة:

- **الرابطة الطبيعية:** وهي كلُّ محبةٍ يشعر بها المرءُ تجاه أقاربه، كتلك المحبة التي تُفطَر عليها الأم تجاه ابنها.
- **الرابطة الشهوانية:** وهي تلك التي تربط الإنسان بما تميل له نفسه وتشتهيه من ملذاتٍ محرمةٍ وميولٍ دنيئة، فعقلُ المقامر وقلبُه مثلا يكونان في حال انشغال دائم بالقمار حتى إنه ينسيه أهله ونفسه.

- **الرابطة الشريفة** (الرابطة الصوفية): وهي التعلُّق بالوسائل والطرق التي توجه الإنسان إلى الله تعالى عبر المفاهيم المقدسة والمشاعر السامية.

وتعد الرابطة إحدى أهم طرق التربية عند الصوفية وإن اختلف أسلوب تطبيقها بين طريقة وأخرى، وهي تعني استحضارَ المريد لصورة مرشده أمام عينيه، متذكرا أحواله وسجاياه، مستشعرا تجاهه الحب والإجلال، فهذه المشاعر السامية تستحثُّ المريد للاقتداء بمرشده، وتَشُدُّ من همته وعزيمته في ذكره وسعيه إلى الله تعالى.

وفي الاستدلال لهذه الرابطة بين المريد وشيخه نقول: إن الإنسان كائن مفطور في أصل خلقته على التأثير والتأثُّر بغيره، فالعدوى خصيصة بشرية لا ينكرها عاقل، وهي كما تنقل بين الناس الأمراض والأوبئة تنقل بينهم الصفات والأخلاق.

فالمشاعر الروحية لدى بعض الشخصيات المؤثرة تنتقل — على قوةٍ أو ضعفٍ وبحسبِ استعداد المتَأثِّر — إلى من يخالطهم، وبغض النظر عن شكل الانتقال سلبياً كان أم



إيجابياً فإن الانتقال حاصلٌ لا محالةَ بما يمتد بين الطرفين من روابط الأنس والمحبة.

فمثلا، تؤثر أحوال الناس الذين تغلب عليهم رقةُ القلب والتضحيةُ والتسامحُ والعطفُ في المجتمع المحيط بهم، وما دور الرابطة – بما تحمله من مشاعر الحب والاحترام – إلا تسريع عملية التأثير هذه.

ولذلك كان على كلِّ مسلمٍ عاقلٍ أن يرتقيَ بأخلاقه إلى أقصى درجةٍ بمصاحبته للصالحين والصادقين والمتقين، ساعيا إلى أن يمد بينه وبينهم روابط الحب والإجلال لهم.

وعجبا لبعض العقول كيف تستقذر بقعاً ملوثة تتلطخ بها ثيابهم الأنيقة ولا يسوؤهم ما تُلوَّثُ به قلوبهم من سجايا وخِلالٍ قبيحة، إلا أن مَن لم ينورِ اللهُ قلبَه بنور معرفته يستهويه الشيطانُ ويخدِّر مشاعرَه فلا يُنكِرُ منكرا ولا يعرِفُ معروفا، ويترك لنفسه أن يتأثر سلبيا بأخلاق الفسقة بينما الله تعالى يريد منها أن تستظل بظلال قوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ التوبة.

والملاحظ أن الآية لم تخاطب المؤمنين بأن "كونوا صادقين"، وإنما أمرتهم أن يخالطوا الصادقين، فمخالطةُ الصادقين والأنسُ بهم ومحبتُهم هي أولى درجات السعي في درب الصدق، ويبقى التحقق بالصدق نتيجة لازمة في خاتمة هذا الدرب، وإلى هذا يشير المثل التركي: (تَسْوَدُّ عَنَاقِيدُ العِنَبِ حين تتناظر).

ويقول الخواجة عبيد الله أحرار في تفسير هذه الآية: (إن تعبير "كونوا مع الصادقين" الذي ورد في الآية الكريمة يعبر عن الأمر بالاستمرار في ملازمة الصادقين، وحين تذكر الكينونة مطلقةً فالمراد بها أن تشتمل على وجهين: حقيقي وحكمي، فالكينونة الحقيقية تستدعي حضور القلب في مجالس الصادقين، وأما الكينونة الحكمية فهي تستلزم تخيُّلَهم وتقليدَهم واستحضارَهم في حال غيبتهم)

فمعية الصالحين – بالقرب منهم ومشاهدة أحوالهم وحتى النظر إلى سيماهم النورانية – لها أثرٌ فعال ونتيجةٌ مؤثرة في تهذيب النفس.



ولذلك كان نعمةً عظيمةً أن يكرمكَ اللهُ تعالى بصحبة الصالحين لما في هذه الصحبة من عدوى خيرٍ وصلاح، فكما أن روائح الورد تَعْلَق بأطراف الحاضرين في جوارها كذلك الصلاح يسري بين الأرواح التي تجاور الصالحين، ذلك لأنَّ المحبةَ فيضٌ يسري بين روحين.

ويطلق تعبير "الفناء في الشيخ" على ذلك الأدب الرفيع والمحبة الخالصة اللذَين تفيض بهما جوارحُ المريد في حضرة شيخه وفي غيبته، وعلى ذلك التخلُّق بأخلاقه والتشبه بآدابه.

ومن المعروف أنَّ المشاعرَ والميولَ والصفاتِ والأعراضَ المجردة لا تقوم بذاتها وإنما لابد لها من هيئة تتلبس بها، فالعِلم يتجلى في العالِم، والعشق يسري في جوارح العاشق، والفن يبدعه الفنان.

وكذلك الروحانيات التي يفيض بها قلب المرشد تنتقل إلى السالك من خلال هذه المجالسة الحسية، وكذلك من خلال المجالسة المعنوية التي تكون في غياب المرشد حيثُ إنَّ مصاحبةَ الصالحين الدائمة متعذرة.

فتعدية الأحوال في الحقيقة تكون بنسبة المحبة والاستئناس، والمعية مع الصادقين والصالحين — بما تعنيه من محبتهم ومحاولة القرب منهم — تعتبر شرطا ضروريا لتقوى هذه المحبة وتنضج ثمارها المطلوبة.

وفي اللحظة التي يتعلق فيها المريد بشيخه ويحبُّه في الله تعالى تكون رحلة العشق الإلهي قد بدأت، فالقلب عندما يتعلق بالمعشوق الحقيقي وهو الله تعالى لن يكون لسواه أبدا، وكل هذه التعلُّقات بالصالحين ومحبتهم إنما هي كدرجات السُّلم التي يُرتقى بها إلى الغاية، وهي أشبه بمحاولات التدرب على الحب الإلهي الخالص، كمن يترقى من حب ليلى إلى حب مولاها، وأكثر هذه المراحل فيوضا إنما تكون عندما يلتقي المريد مرشدا كاملا يأنس به ويتعلق فيه ويخلص له، وعندما تصل المحبة بين المريد وشيخه إلى هذا النحو تسمى رابطة.

فعندما قال أحد الدراويش حين لجأ إلى أبي يزيد البسطامي: (أوصني بعمل يقربني إلى الله تعالى، أجابه أبو يزيد: أحبَّ أولياء الله حتى يحبوك، واجتهد أن تكون في



قلب ولي، لأن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه كل يوم ٣٦٠ مرة، فإذا رأى اسمك في قلب أحدهم غفر لك)

فالرابطة في التربية الصوفية هي في حقيقتها تربيةٌ للمريدِ على محبةِ الله تعالى، وترقيتِه شيئاً فشيئاً إلى هذا المقام الرفيع من خلال محبته للصادقين ومجالسته لهم.

فالرابطة تُحدِث – بقوة المحبة – رباطاً معنوياً سامياً في الحس والشعور، يصهر في بوتقة حب الله تعالى الأشخاصَ المتشبثين فيه، حتى تصبحَ قلوبُهم كأنها دررٌ نُظِمَت في سلكٍ واحدٍ.

و يعبِّر الشيخ سعدي الشيرازي عن سمات هذه العدوى التي تسري بين أحوال الصالحين ومريديهم: (إن من يصاحب الصالحين يشرف بهم ولو كان وضيعا، فها هو كلب أصحاب الكهف فاز بشرفٍ عظيم حين ذكره الله في القرآن الكريم، وما ذلك إلا لأنه صَاحَبَ المؤمنين الصادقين، وكذلك مَن يصاحِب الفاسقين يخسر ولو كان شريفا، فها هي زوجة سيدنا لوط عليه السلام خابت وخسرت وباءت بالنار والخسران لأنها كانت مع الفاسقين)

و يتابع الشيخ الشيرازي حديثه وتمثيله لهذه الخاطرة في مؤلفه (جولستان) وكيف أن المصاحبة تُعدي: (يذهب أحدُهم إلى الحمام مع صديقه، فيعطيه طينة ذات رائحة زكية يتطهَّر بها، وتفوحُ العطور منها وتعبَق في المكان، فيسأل الرجلُ الطينَ: ما أطيب ريحكِ أيتها الطينة العَطِرَة، بالله أخبريني من أيِّ أنواعِ الطيوب أنتِ، أمسكٌ أنت أم عنبر؟، فتجيبه قطعةُ الطين الزكية: أنا لست مسكاً ولا عنبراً، أنا طينة من طين الأرض ليس غير، إلا أني كنت تحت وردةٍ عَطِرَةٍ أتبلل كلَّ يومٍ بنداها، فهذه الرائحةُ التي تسحرُك الآن إنما هي أثرٌ من آثار تلك الوردة التي صحبتُها ردحا من الزمن).

وكذلك المريد حين يُسلم قلبَه لأولياء الله تعالى ويُخلص لهم وده ويتواضع بين أيديهم، فإنه تفيض على قلبه صورُ الجمال المطبوعةُ في قلوب هؤلاء الصادقين، كالقمر الذي ينير الكون في كبد السماء، إنما ينعكس نور الشمس على صفحته فيضيء مع أنه مظلم في ذاته.



فقلب المرشد الكامل الفاني في الله تعالى، يكون محطَّ تجلياتِ الله تعالى ورحماتِه، ثم يكونُ كالمرآة تعكس هذه التجليات، ومورداً صافياً عن كل شائبة، يَرِدُه السالكون ليتطهروا من كل ما عَلِقَ بهم من مساوئ ومخازٍ، وليرتووا من هذه الأحوال الشريفة العلية.

ولذلك في كثير من الأحيان لا تكون الصحبة الحسية خيراً من الصحبة المعنوية كما يتوهم بعضُهم، إذ إنَّ كثيراً من المريدين يعيشون في أكناف الصالحين وتحت أنظارهم لكنهم غافلون سادرون لا يقتبسون من أنوار من يصاحبونهم قليلاً ولا كثيراً، بينما تجد مريدين حجزت بينهم وبين مرشديهم مفاوز شاسعة لكنهم يتحرقون للقائهم ويقبسون من أنوارهم، حيثُ إنَّ رباطَ الشوق والمحبة – وإن بَعُدَ المزار – أقوى وأشدُّ من رباط المكان، ويعبِّر العقلاء عن هذا بقولهم في المثل المشهور: (من في اليمن معي، ومن معي في اليمن) فليست العبرة أن تلتقي مع الصادقين لقاء الأجساد، وإنما أن تلتقي معهم لقاء الأرواح.

وكذلك، ليس الأمر موقوفا على المرشد ورسوخ قدمه في التربية والإرشاد،وإنما الأمر يعتمد أيضا على المريدِ وصدقِه في الطلب وإخلاصِ نيته في سيره إلى الله تعالى، فكلما صدقَ المريدُ وأخلصَ النية ازدادَ قربا إلى الله تعالى ورقيا في مقامات محبته سبحانه.

فالفرق بين مقامات المريدين إنما يتولد عن استعداد كلٍّ منهم وعن صفاء المحبة التي يفيض بها قلب كلِّ واحد فيهم، فسواء وضعت كأسك في اليم الواسع أو في إناء صغير فلن تملأ إلا مقدار الكأس التي تغرف بها، فالعبرة بالكأس لا بالمورد الذي تضع الكأس فيه، ولذلك حتى يستفيد المريد لابد أن يكون مقبلاً ومتهيئا.

و كذلك فإنَّ خاصية العدوى تكون سلبيةً كما تكون إيجابية، فمن يجالس الفسقة والضالين يصيرُ منهم، فرجال هامان وفرعون إنما تفرعنوا وتكبروا على عباد الله لمخالطتهم فرعونَ وهامان.

ولذا فقد جاء في الحديث الشريف:



(**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)[٤٨].

وجاء أيضا: (**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**)[٤٩].

وخلاصة ما سبق، أن الرابطة إنما هي وسيلةٌ تحافظ على نضارة المحبة وبريقها، وتطهِّرها من شوائب الغفلة والانحراف، أما ما قد يذهب إليه بعضُهم أو يبالغ فيه من إضفاءِ القداسة على المرشدين والصالحين فهذا من مجاوزة الحق، والذي قد يفتح بابا للشرك أعاذنا الله وإياكم منه، وهنا تنزلق أقدامٌ وتَزِلُّ نفوسٌ كثيرة، فالمرشدُ الكامل ليس طرفا ثالثا بين المريد والله تعالى – فلا رهبنة في الإسلام ولا إكليروس – وإنما المرشدُ الكامل قدوةٌ للمريد وأسوةٌ يأخذ بيده ليصل به إلى غايته، ووسيلةٌ يتطهر بها المريد وينقي باطنه ويتعلم حال رسول الله ﷺ ليأتسي به، أما القداسة التي يزعمها بعضُهم للأولياء فهي لا تكون إلا لله تعالى وحده، فهو وحده القادر والقوي، وكلُّ عبدٍ مهما علت رتبتُه يظلُّ عاجزا وضعيفا ومفتقرا لله تعالى.

---

٤٨. صحيح البخاري، باب علامة حب الله تعالى، ٦١٦٨.

٤٩. سنن أبي داود، كتاب اللباس، ٤٠٣١.

الفصل السادس

اللطائف وذكر الله تعالى

ذكرنا سابقا أن ذكر الله يُعد أحد أهم طرق المرشدين إلى الله تعالى، ولذلك فقد وضعوا طرقا وأساليب متنوعة على مدى تاريخهم الطويل حتى يصلوا إلى مقام الفناء في الله تعالى، ويغيبوا في ذكره عن الوجود كله، فلا يبق في القلب أحد إلا هو سبحانه وتعالى.

ولكنْ ثَمَّةَ طريقةٌ نود أن نعرض لها هنا بشيءٍ من التفصيل، وهي طريقةٌ يصل بها العبد إلى مقام الذكر الكلي، فتصير كلُّ جوارحه وأعضائه تذكر الله تعالى، وتكون هذه الطريقة من خلال تحديد اللطائف الروحانية في جسم الإنسان.

فكما أنَّ في الجسم مراكزَ حسيةً تقوم على رعاية الجسد كذلك ثمة مراكز معنوية ترعى الروح وتعتني بها،



وكما يُطلَب من أحدنا أن يحافظَ على مراكز جسمه الحسيةِ كالقلبِ والمخّ والرئةِ والكَبِدِ لتستمر الحياةُ كذلك يكون من الضروري أيضا أن نرعى مراكزنا الروحيةَ ونحفظ سلامتها حتى نحافظ على يقظة روحنا ورقة شعورنا.

وهكذا حدد بعضُ أهل الله تعالى لطائفَ ومراكز في الجسد – بالإلهام والتجربة – ترعى الروحَ وتقوم على شؤونها، وقد ذكروا لها مواضعَ ومسمياتٍ متنوعةً نختصرها كما يلي:

– **القلب**: وهو اللطيفة التي تتموضع في قطعة من اللحم صنوبرية الشكل، والتي تقع تحت أصبعين في الجانب الأيسر من الصدر، أعني هي اللطيفة المعنوية التي تشكل المركز الحسي داخل قلبنا المادي المعروف.

– **الروح**: هي اللطيفة المعنوية الواقعة تحت أصبعين في الجانب الأيمن من الصدر.

– **السر**: هو اللطيفة المعنوية التي تتوضع على مقدار أصبعين من أعلى الجانب الأيسر في الصدر.

- **خفي**: هو اللطيفة المعنوية التي تتوضع على مقدار أصبعين من أعلى الجانب الأيسر في الصدر.

- **أخفى**: وهي اللطيفة المعنوية التي تقع في مركز الصدر وتتوسط اللطائف الأربعة السابقة.

- **النفس الناطقة**: هي اللطيفة المعنوية التي تمتد على هيئة خط من بين الحاجبين إلى الأعلى.

- **الذكر السلطاني**: حيث يستولي الذكر على كلِّ ذرة من ذرات الجسد، فلا ترى جارحة في الجسد إلا وهي غارقة في ذكر الله تعالى، وبعبارة أخرى أن تتحول الجوارح كلها إلى اللطائف المذكورة في الأعلى وتتعود على ذكر الله تعالى.

ويبين المرشدون الذي يقومون على تهذيب القلوب وترقيتها أن هذه اللطائف ليست من عالم "الخلق"، وإنما هي سِرٌّ من أسرار عالم "الأمر"، وأنها – على وضوحها عند أهل الله – إلا أنه تعجز القوالب اللغوية عن توضيحها وبيانها لنا.



ويبين لنا المرشدون – الذين يَعُدُّونَ الذِّكرَ أهمَّ طرق الوصول إلى الله تعالى كما ذكرنا آنفا – أن الذكر يكون على حالين، ذكراً جهرياً يقوم بالأعضاء والجوارح الحسية، وذكراً خفياً تتلبَّس به اللطائفُ المعنوية، وتحلق فيه الروح، وهذا هو الذكر المقصود في قوله تعالى:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ الأعراف.

ولما كان الذكر الخفي لا يقوم إلا بهذه اللطائف فإنها لا تنشط ولا تقوى إلا بكثرة الذكر ودوامه، وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمود سامي – وهو من كبار عارفي العقود الأخيرة – قدس سره:

(إن الشرط الأول لتوفيق القلب وتصفيته هو الذكر الدائم المتصل، لأن الله تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ الأحزاب.



وإلا فالذكر القليل لا يكفي لترقيق القلب، وإنما يرق القلب بكثرة الذكر، وعلى الإنسان ألا يسمح لشيء أن يمنعه من بلوغ هذا المقام، فبه يكون من المكرمين ويتطهر قلبا وقالبا، ويشع نورا وحكمة)[٥٠]

ويتحدث صاحبُ الوفا الأستاذ موسى طوباش قُدِّسَ سِرُّه مبيِّناً أهميةَ ذكرِ الله تعالى في تربية الروح وتزكيتها:

(إنَّ الذكرَ الكاملَ هو معيارُ عِشق الله تعالى والإيمانِ به، فالمُحِبُّ لا يكاد يغفُل عن ذكرِ مَن يحبُّه، ولا يفتأ يردد اسمه في كلِّ لحظةٍ من ليلٍ أو نهار، فمَن نالَ شرفَ ذِكرِ اللهِ تعالى فقد نال كل خير، ومن حُرِمَ من شرفِ ذكر الله تعالى حُرِمَ من كل خير، فبذكر الله تعالى يتنوَّر القلبُ ويزكو، وتطمئنُّ النفسُ وتعلو، والمشغولُ بالذكر والمداومُ عليه يَعمُر قلبُه بالخير، وتتزين فعالُه وأخلاقُه بالحسن والبهاء، وتَسعَد روحُه وتهفو.

٥٠. محمود سامي رمضان أوغلي، Bayram Sohbetleri، دار الأرقم للنشر ، اصطنبول ٢٠٠٥ ، ص٤٤-٤٥ .



فحينما يصل العبد إلى مقام العشق الإلهي يفنى كلُّ شيء في قلبه إلا ذكر الله تعالى، ويغيب كلُّ معشوقٍ وتَعَلُّقٍ بغيره سبحانه، فلذلك كان على العبد ألا يشغل قلبه بغير ذكر الله تعالى، وأن يجتهد في إيقاظ روحه وترقيتها بذكر الله تعالى حتى يفيض هذا الذكر وتنعم به كل لطائف النفس وجوارح الجسد)[٥١]

فالإنسان من حيث الجسد الفاني خُلِق من تراب وسيعود إلى تراب، وأما من حيث الروحُ الخالدةُ فهي نفخةُ الله وروحٌ منه، ويوم البعث سيكسو الروحَ جسدٌ جديدٌ، يكون إما مظلماً وإما منوراً، وهذا بحسب مقام الروح في الدنيا والحال التي كانت عليها، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ آل عمران.

٥١. صادق دانا، Altinoluk Sohbetleri، دار الأرقم للنشر، اسطنبول ، ٢٠٠٤، ج ١، ص ٦٦ .

فعندما نرتقي بأرواحنا في الدنيا وتشرق بأنوار ذكر الله تعالى فستشرق في الآخرة أيضا،فعلينا أن نغتنم حياتنا قبل الموت لنسعى جاهدين إلى التلحف بهذه النورانية يوم القيامة.

الفصل السابع

النفي والإثبات

للذِّكرِ صيغٌ كثيرةٌ ولعلَّ أشهرَها وأشرَفها كلمةُ التوحيد، والتي تُسمى (النفي والإثبات)، وقد اعتنى كبار مشايخ النقشبندية خاصة بهذا الذكر، ويراد من هذا الذكر التخلُّص من كلِّ شيءٍ يُبعِدُ القلبَ عن الله تعالى، وتسمى هذه الحالة (النفي)، ويراد منه أيضا قَصْرُ عبوديتنا على الله وحده فقط، فلا نبتغي رضا أحد غيره، ولا نقصد بأعمالنا وأقوالنا أحدا سواه، وتسمى هذه الحالة (الإثبات).

فغايةُ هذا الذكر أن نجعلَ غايتنا ومقصدنا الله تعالى وحده، وأن لا نرى لغيره من المخلوقات – مهما عَظُمَ – وجودا أبدا، فلا شيءَ له قيمةٌ أو وجود حقيقي أمام الله تعالى، فهو وحده الحقُّ وما عداه خيالاتٌ وأوهام.

وقد اعتُنِيَ كثيرا بهذا الذكر ووقف عنده المرشدون، فحين يؤدي المريدُ هذا الذكرَ على النحو الأمثل فهو ينقِّي القلبَ من كل الخواطر والأغيار العالقة به، ويهيئه لمراقبة الله عَزَّوَجَلَّ واستحضارِ عظمتِه وقدرته.

الفصل الثامن

المراقبات

تعني كلمة "المراقبة" في اللغة الملاحظةُ الدقيقة، وأما في مصطلح أهل التصوف فهي حالةٌ وجدانيةٌ يحياها العبدُ حين يذكرُ اللهَ تعالى في كل مكان وزمان، ويوقِن بوحدانيته وعظمتِه يقينا لا يدانيه شكٌّ، ويستشعر معيةَ الله تعالى دائما، حتى يفنى في محبته ولا يرى أحدا سواه.

وحتى نشرُفَ بهذه الحال فلابدَّ أن نمهِّد السبيل إليها في قلوبنا، تنقيةً لها وتزكيةً وتطهيراً، ونحيا في ظلال قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ الشمس.

ومن الأمور التي علينا أن نراعيها في سبيل ذلك:

- العناية الشديدة والحساسية المرهفة في تحصيل اللقمة الحلال.
- رعايةُ حقوق الخلق جميعا.
- القيام في الأسحار بين يدي الله تعالى.
- تعظيمُ الله تعالى واتباعُ أمره ونهيه بخشوع وإخبات.

- السعي في خدمة الخلق جميعا.
- إنفاقُ المال وبذلُه عن رضا وطِيبِ نفسٍ.
- مصاحبةُ الصالحين.
- الحياةُ بالقرآن ومع القرآن.
- إحياءُ القلب بذكر الله تعالى.
- الحرصُ على اجتناب الأخلاق الذميمة كالغيبة والنميمة، والأنانية والحقد والحسد، والبخل والرياء وحب الرياسة.
- التفكرُ في الموت، وإيقاظُ القلب حتى لا تستولي عليه الغفلات.

وحرصا من المرشدين على تحقُّقِ العبد بحال المراقبةِ لله تعالى كانوا يوصونه بالتفكُّر في هذه الآيات الكريمة على نحوٍ خاص:

أولا. مراقبة الأحدية:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾ الإخلاص.

فالله تعالى هو الإله الواحد، فلا شبيهَ له ولا نظير، والله هو الصمدُ، فجميع الخلائق تحتاجُه وتفتقرُ إليه بينما هو سبحانه لا يحتاج أحداً أبداً، حتى الولدُ والوالدُ لا يحتاجهما اللهُ تعالى كما يحتاجهما كلُّ فردٍ من خلقه، ولذلك ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص، فلا أحدَ يَعْدِلُ اللهَ تعالى في أيِّ زمان ومكان.

ثانيا. مراقبة المعية:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ الحديد.

ثالثا. مراقبة الأقربية:

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ ق.

رابعا. مراقبة المحبة:

﴿ ... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ... ﴾ المائدة،٥٤.

وإنَّ السالكين الذين يصلون إلى مقام المراقبة بالأذكار والأوراد ينبغي عليهم أن يرتقوا بحالهم أيضا، فالذكرُ العمليُّ

ينبغي أن يترافق مع الذكر القلبي، لأنَّ الأخلاقَ والمعاملاتِ هي المعيارُ الحقيقي لتطهُّر القلب، وهي الصورة الظاهرة لحال بواطننا.

وحتى يصل العبدُ إلى حقيقة المراقبة فعليه ألا يقف عند ظواهرها اللفظية، وإنما أن يحيي في المراقبة بحاله وقاله معا، وأن يحاسب نفسه دائما، ويسألها أسئلة تعرّفِه مكانه في مقام المراقبة.

فمثلا، ما هي مراقبة الأحدية؟

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ الإخلاص:

الله ﷻ إلهٌ واحدٌ متفردٌ بأسمائه وصفاته الجليلة التي لا مثيل لها ولا نظير، وهو وحده مَن يستحقُّ العبادة والتعظيم، وهو سبحانه وحده واجب الوجود، فلا وجودَ حقيقيا إلا وجودُه بينما كل ما عداه صور وظلال، ولذلك كلما اقترب العبد من الله تعالى غاب عن كل وجود آخر حتى عن نفسه.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ الإخلاص:

تعني أن الله تعالى لا يحتاج أحداً بينما يحتاجُه كلُّ أحد، فهو وحده الغنيُّ بينما كلُّ شيءٍ – من أصغر ذرة إلى أعظم مجرة – يفتقر إليه لإيجاده من عدم ولإمداده كل لحظة حتى يبقى.

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾ الإخلاص:

فلم يكن الله سبحانه أباً ولا أماً لأحد، ولا يحتاج هو أن يكون له زوجة ولا ولد، ولذلك كان تأليه النصارى لعيسى عليه السلام واعتبارِه ابن الله فريةً من أعظم الفِرَى وكبيرةً من أشدِّ الكبائر في حقِّ الله عزّ وجلّ.

ونفهم من هذه الآية أيضا معنى آخر، وهو أن الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث، فهو لا يشبه مخلوقاً ولا يشبهه مخلوقٌ على الإطلاق، فهو سبحانه إله متعالٍ عظيم، فوقَ طاقة البشر على الإدراك، منزَّه عن كُلِّ فكرة أو صورة ترسم ذاته العلية في عقول البشر أو أخيلتهم.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ الإخلاص:

أي لا شبيهَ له منذ الأزل وحتى الأبد، سواء في صفاته أو ذاته أو أفعاله.

وعلى السالك حين يكون في هذه المنزلة من المراقبة أن يستغرق في هذه المعاني وغيرها من معاني سورة الإخلاص بتفكير عميق، إلى أن يتلاشى الوجودُ كلُّه – حتى نفسُه التي بين جنبيه – في بحرِ الفناء والعدم أمامَ الله تعالى الموجودِ الحقيقي الأوحد في هذا الكون، عندها يستشعر لذةَ توحيد الله تعالى وتنزيهه، ويشهد عظمةَ الله تعالى وتجليات قدرته مبثوثةً في كلّ شيء، وتَهُبُّ عليه نسماتُ الفناء في الله تعالى فيغيبُ بها عن كلّ شيء.

إن أصل شعور المراقبة والمعية هو ما جاء على لسان النبي ﷺ لما عرَّف "الإحسان" فقال:

(أَنْ تَعْبُدَ اللّٰهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[٥٢].

ومن خلال هذا البيان النبوي نستطيع أن نقولَ إن مراقبة المعية والأقربية إنما تحصل حين يشعر العبدُ أنه تحت

٥٢. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ٥٠.



الرقابة الإلهية في كل زمان ومكان، عندها ينعُم العبدُ بمعية الله تعالى أينما كان ومتى كان.

أما مراقبة الأقربية التي تتقدم على مراقبة المعية بدرجة فيستولي على العبد فيها شعورٌ بقرب الله إليه، حتى يغدوَ أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وهذا الأمر فوق إدراك البشر.

إنه قربٌ حتى إن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه ويعلم السر وأخفى ويطَّلع على النوايا والخطرات، فيعلم اللهُ خفايا العبد أكثر مما يعرفها العبد نفسه، والذين يصلون إلى هذه المرتبة من الرهافة في الشعور بقرب الله تعالى هم وحدهم من يعبد الله تعالى حق العبادة، ويعتني بمعاملته، ويحاسب نفسه على خطراتِهِ وأحاسيسه في كل حين.

إنهم يعيشون – مع كلِّ نَفَسٍ يصدُر منهم – مع أنوار قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ ق.

وحين يصل العبدُ إلى هذه الحالِ من استشعار قربِ الله تعالى، فإنها تكون وقايةً له من الوقوع في الذنوب، إذ كيف



يُذنِبُ العبدُ وهو يعلم أنَّه في حضرةَ الله تعالى، وقلبه — مستشعراً معيةَ اللهِ تعالى — ينبض بـ (يا رب).

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ الغايةَ من هذه المراقبة أن يستشعرَ العبدُ أنه تحت سمعِ اللهِ وبصره في حياتِه كلها، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ الحديد.

كما يعبر الحديث الشريف بدقة عن ضرورة ذكر الله تعالى في كل لحظة وأن نحيا مستشعرين دوما مراقبة الله تعالى علينا:

(لا تُكْثِرُوا الكَلامَ بغَيرِ ذِكرِ اللهِ، فإنَّ كثرَةَ الكلامِ بغيرِ ذِكرِ اللهِ قسوةٌ للقَلْبِ، وإنَّ أبعدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلبُ القَاسِي)[٥٣].

وذات يوم سأل أحدُ الصحابة الكرام رسولَ الله ﷺ: (وَمَا تَزْكِيَةُ الْمَرْءِ نَفْسَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فقَالَ: **يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ**)[٥٤].

٥٣. سنن الترمذي، أبواب الزهد، ٢٤١١.

٥٤. شعب الإيمان للبيهقي، كتاب الصلاة، ٣٠٢٦.

ويقولُ رسول الله ﷺ:

(إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ إِيمَانِ الْمَرْءِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ)[٥٥].

وعلينا في ضوء هذه الحقيقة – بعد أن ندرك معنى المراقبة والإحسان – أن تستقيم أحوالنا على ما يناسب هذه الحال، وأن تكون حالنا مطابقة لحال رسول الله ﷺ فهو أعظم مثال لحال الإحسان، فكيف كان صبره! وكيف حال صبرنا نحن الآن؟ وكيف كان كرمه! وما حالنا نحن مع الكرم والسخاء؟ وكيف كانت صلاته وصيامه وحجه وزكاته وإيمانه وتوحيده! وما حال ذلك عندنا؟، وكيف كان جهاده وعزيمته وعدله وإنصافه! وما حال كل هذه الأخلاق عندنا؟، فعلينا أن نحاسب أنفسنا على تصرفاتنا وأحوالنا دائما على هذا النحو بالقياس إلى أحوال وتصرفات رسول الله ﷺ، لأن النبي ﷺ هو المعيار الشرعي الوحيد لكل هذه الأفعال، وهو الأسوة الحسنة والقدوة العظمى للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة.

---

٥٥. شعب الإيمان للبيهقي، باب الخوف من الله تعالى، ٧٢٧.



ذات يومٍ كان أحدُ الوعاظ يبين أحوال الآخرة مِن على المنبر، وكان الشيخُ الشبلي في الحاضرين، وعَرَضَ الواعِظُ للأسئلة التي سيسألها الله تعالى في الآخرة، فقال: سيسألك عن علمك ماذا عملت به، وسيسألك عن مالك من أين اكتسبته وفيما أنفقته، سيسألك عن عمرك فيما أفنيته، سيسألك عن عبادتك على أيِّ حالٍ أديتها، سيسألك عن مطعمك ومشربك هل تحريتَه من حلالٍ أم تساهلت فأخذته من حرام.....، وعدَّد أمورا كثيرة وأطال الحديث فيها، وعندئذ نادى الشيخُ الشبلي بصوتٍ خفيضٍ: لكنك أيها الواعظ نسيت أهمَّ سؤال سيسأله اللهُ تعالى للعبد، سيسأل الله عبدَه يومَ القيامة: **يا عبدي، قد كنتُ معك وكنتُ أقرب إليك من حبل الوريد، فمع مَن كنتَ أنت؟!**.

فالغاية من عبودية الإنسان لله تعالى أن يستشعرَ هذه المراقبةَ والمعيَّة له سبحانه، وأن يوقن بها قلبُه، فاللهُ سبحانه لا تخفى عليه خافية، حتى نوايانا التي تُسِرُّها قلوبُنا يعلمها اللهُ تعالى وسيحاسبنا عليها.

فالله تعالى معنا في كل مكان وزمان، وعلينا نحن أيضا أن نكون معه في كل زمان ومكان، حتى نسموَ بمعية الله تعالى ونتحقَّق بمقامات الخشية لله تعالى والرضا بقضائه والتسليم لأمره سبحانه، فلا تكون لنا أمام إرادةِ الله إرادة، ولا نحب إلا ما يحبه ولا نرضى إلا بما يرضاه، فتنصهر إراداتنا الجزئية في إرادة الله تعالى لنا، راضين مستسلمين له سبحانه.

ويروى أنه شاع في القرن التاسع عشر عن الشيخ محمد نور العربي إنكاره الإرادة البشرية (الجزئية)، فلما بلغ السلطانَ عبد المجيد خان هذه الشائعةُ أمر بإحضار الشيخ إلى مجلس المحاضرات السلطانية ليسأله عن مقولته هذه، ودُعي الشيخ إلى مجلس السلطان، وسُئل عن مقالته تلك، فأجاب الشيخ: (أنا لم أنكر الإرادة الجزئية بحيث نفيتُ وجودَها أصلا، وإنما أنا قلت أنها في حكم العدم عند طائفة من الناس، حيث إنَّ أولياء الله تعالى لا يريدون إلا ما يريده اللهُ تعالى ولا يتصرفون إلا وَفقَ مراد الله تعالى، حتى إنَّ إرادتهم البشرية تكاد تكون معدومة، وإن لم يفعلوا

ذلك فإنهم يرون أنفسهم مقصرين ويسيئون الأدب مع الحضرة الإلهية، فمثلا نحن الآن في حضرة السلطان، فإذا قال "تعال" أتينا، وإذا قال "اذهب" ذهبنا، ولا يسعنا أن نتصرف وفق مرادنا ونحن في حضرة السلطان، أما أولئك الغافلون الذين هم خارج حضرة السلطان فإنهم أحرار في إرادتهم، لا يحدهم أمر ولا نهي)

وهكذا فإنَّ شعورَ الإحسان ينبغي أن ينعكس على الأعمال بعد أن يترسخ في القلب، وإلا فإن الحديث عن المراقبة بلسان المقال دون الإحساس بها لا ينفع القلب شيئا.

أما **مراقبة المحبة** فهي المرحلة التي يتحقق فيها العبدُ بولاية الله تعالى، فكلما راعى العبد تقوى الله تعالى في كل أفعاله وأقواله ازداد معرفةً به سبحانه، وكلما ازدادت معرفةُ العبد بالله تعالى هيمنت محبتُه على قلبه، لأنَّ كمالَ المعرفة يولِّد مشاعرَ الحب والإعجاب.

وعند التحقيق نجد أن الله تعالى هو مصدر المحبة، فمن أسمائه "الودود" سبحانه، وهذا الاسم الشريف يدل على

من يُحِب ويحَب كثيرا، ومَن أراد أن يحظى بمحبة الله تعالى فعليه أن يسعى لتزيين نفسه بالكمالات، كما عرضت الآيات الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾ المائدة.

ويتحدث القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ:

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾ آل عمران.

ويقول الله تعالى:

﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾ البقرة.

أي أنَّ الله تعالى يحبُّ المخلصين الذين يقومون بالأعمال على أحسن وجه، ويحب الكرماء والأسخياء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ ﴾ البقرة.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ ﴾ آل عمران.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ ﴾ آل عمران.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩ ﴾ الحجرات.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤ ﴾ التوبة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤ ﴾ الصف.

فالله يحب الذين يجاهدون في سبيله كأنهم — لشدة توافقهم وتعاونهم — كبناءٍ قوي متماسكِ الأركان.

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي:

(....وَمَا تَقرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ....)[٥٦].

٥٦. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، ٦٥٠٢.

ويبين النبي ﷺ بعضَ صفاتِ العباد الذين يحبهم الله تعالى:

(إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيّ)[٥٧].

(إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كلِّه، ويحبُّ كلَّ قلبٍ خاشعٍ حزينٍ رحيم، يعلِّمُ الناسَ الخيرَ، ويدعو إلى طاعةِ الله، ويبغضُ كلَّ قلبٍ قاسٍ لاهٍ، ينامُ الليلَ كلَّه، ولا يذكرُ اللهَ إلا قليلاً، ولا يدري تُرَدُّ إليه روحُه أم لا)[٥٨].

(إنّ الله تَعَالَى يُحِبُّ الشّابَّ الَّذِي يُفْنِي شَبابَهُ فِي طاعَةِ الله)[٥٩].

(إنّ الله تَعَالَى يحِبُّ أنْ يَرَى عَبْدَهُ تَعِباً فِي طَلَبِ الحَلالِ)[٦٠].

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ، الْفَقِيرَ، الْمُتَعَفِّفَ، أَبَا الْعِيَالِ)[٦١].

٥٧. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ٢٩٦٥.
٥٨. كنز العمال، ٥٣٧٠.
٥٩. الجامع الصغير، ٣٦٢٥.
٦٠. الجامع الصغير، ٣٦٣٩.
٦١. سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، ٤١٢١.

(إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)[٦٢].

وهكذا، فكلما تحلى العبد بالصفات المرضيَّةِ عظُمت محبةُ الله له، ومِن ثَمَّ تتولد محبةُ الله تعالى في قلب العبد، فالمحبة إنما تبدأ من الله تعالى ثم يفيض بها قلبُ العبد تجاه الله، وتعظُم هذه المحبة في قلب العبد شيئا فشيئا حتى يحب بها كلَّ مَن في الوجود ماعدا أعداء الله.

فإذا أحبَّ اللهُ تعالى عبادَه جعلهم مركزَ جذبٍ نوراني، فأحبَّهم الناس دون أن يشعروا، وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ مريم.

وهذا ما يؤكده فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ في أحاديثه الشريفة:

(إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ

٦٢. شعب الإيمان للبيهقي، باب الأمانات، ٤٩٢٩.

اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ)[٦٣].

وإنَّ محبة الله تعالى ينبغي أن تسموَ في قلب العبد على كلِّ محبة، وعلى المؤمن أن يجعل من كل محبة أو تعلُّقٍ بنعمةٍ من نعم الله تعالى وسيلةً يتقرب بها إلى الله تعالى وينال بها محبته ورضاه.

فمثلا، على العبد أن يجعل من حبِّه للمال والحرصِ على اكتسابه وسيلةً لرضا الله تعالى بأن ينوي في تحصيله إنفاقَه في سبيل مرضاة الله تعالى، وكذلك ينبغي أن يتحول حب الأبناء والتعلُّق بهم إلى أن ينوي تربيتهم ليكونوا عباداً صادقين طائعين لله تعالى، وكذلك الأمر في المنصب والجاه والشهرة، فينبغي أن تتحول كلُّها إلى وسائلَ لخدمة العباد فيما يرضي الله تعالى.

وفي حقيقة الأمر أن المحبة تنشأ عن الصفات المشتركة بين الحبيب والمحبوب، فكلما تجلت الأسماء والصفات

٦٣. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ٣٢٠٩.



الإلهية في العبد ازدادت في قلبه المحبة الإلهية أيضا، وفي نهاية الأمر يتحقق الحال الذي يعبِّر عنه كبار الصوفية بقولهم: (تخلقوا بأخلاق الله تعالى)، وبهذه العلامات والإشارات فحسب يعرف المرءُ صحة مراقبته وصدقَ محبته لله تعالى.

الرحمن: هو الذي يرحم ويُنعم بجميع نعمه على كل مخلوقاته، وهذه الصفة من أكثر الصفات ذكراً في القرآن الكريم، وإذا تجلى اللهُ على العبد بهذا الاسم فإن العبد يفتح جناحي الرحمة والشفقة لكل مخلوقات الله تعالى وليس على نفسه وأهله فحسب.

المؤمن: هو الذي ينوِّر القلوبَ بنور الإيمان، وهو الذي يَهَبُ الأمانَ والحفظَ لمن يلوذ به، ويهدئ روعه، وهو الذي إذا وعد وثِقْتَ بوعده، وإذا تجلى الله تعالى على العبد بهذا الاسم تجذر الإيمان في قلبه، وصار محط ثقة الآخرين فلا يخون أمانته ولا يخلف وعده.

البارئ: هو الذي يخلق كلَّ شيءٍ من العدم، بنظام مُحكَم، وعلى غير مثال سابق، وهو أيضا الذي يؤلف

أجهزة الجسم وأعضاءه بعضها مع بعض دون خلل أو نقص، وحين يتجلى الله على العبد بهذا الاسم فإنه يحيي حال مراقبة يرى فيها بديع صنع الله تعالى وتدفقات قدرته التي يفيض بها الكون، وتتولد عنده حساسيةٌ وعزيمةٌ تحمله على أداء كل فعلٍ من أفعاله في عَدْلٍ وإتقان.

المصوِّر: هو الذي خلق الخلق كلهم – بحكمته الأزلية – على هيئاتٍ متنوعةٍ وصورٍ مختلفةٍ، وحين يتجلى الله تعالى على عبده بهذا الاسم فإنه ينظر إلى كل صور خلق الله تعالى بعين التأمل والدهشة والإعجاب، فيرى الشمس المشرقة، ويتأمل تلك اللوحات البديعة التي ترسمها خيوط الشمس الـمُذْهَبَة في الأفق عند المغيب، ولا يرى فيها إلا صورةً من تجليات الله تعالى وبديع خلقه، فأولياءُ الله إذا نظروا إلى الثعبان الذي يزرع الموت في كل مكان يحِلُّ فيه لا يفزعون منه وإنما يعجَبون لدقة صنع الله تعالى الذي وهبه الحركة السريعة مع أنه لا أقدام له يسعى عليها، وكذلك ينظرون بعين الحكمة والعبرة إلى التربة الواحدة كيف تنبت



أنواعا مختلفة من الورود والأشواك والثمار متباينةَ الألوان والأشكال والمذاقات.

مالك الملك: فالكون الفسيح هذا بكلِّ ما فيه من موجودات وملكوت ليس له مالكٌ غير الله سبحانه، والعبد حين يحظى بهذا الاسم الشريف يستشعر في أعماق نفسه أنَّ كلَّ ما وهبه اللهُ تعالى من مالٍ ومُلك إنما هو أمانة في يده، فلا يتعلق به وإنما يسعى للتخفف منه في أسرع وقت، وهكذا يعرف كيف يتعامل مع المال في هذه الدنيا فيبدأ بالتطهر من الخصال المذمومة المرافقة له كالإسراف والتقتير، ويتزيَّن بالخصال المحمودة المرجوَّة منه كالإنفاق والإيثار والتضحية والشكر لله عز وجل عليه، والتعظيم له سبحانه فهو صاحب النعمة ومالكها الحقيقي.

الرازق: وهو الذي يُنعم ويتفضل بجميع الأرزاق المادية والمعنوية على جميع المخلوقات التي خلقها، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾ العنكبوت.

ويقول سبحانه:

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ هود.

وإنَّ العبد – حين يتجلى الله تعالى عليه باسمه الرزاق – يصير متعلقا بالرزاق وليس بالرزق، يذكر كل لحظة الرازق الحقيقي وينبهر بجوده وموائده المنثورة في كل أرجاء الكون كل لحظة، ولذلك فعندما يسعى العبدُ لرزقه فلا يأخذه إلا من حِلٍّ، وإذا أنفقه فلا يمُنُّ على أحدٍ به لأنه يعلم أنه ليس إلا وسيلة لإيصال هذا الرزق إلى عبدٍ من عباد الله تعالى.

العدل: وهو المُنصِف وذو العدل المطلق الذي لا يظلم أحدا أبدا، والعدالة تعني إعطاء كل ذي حَقٍّ حقه، والعبد الذي يحظى بنصيبٍ من هذا الاسم الشريف ينفر من كل أنواع الظلم، فلا يظلم أحدا، وإنما يكون عادلا مع كل شيء حتى لو تعارض ذلك مع مصلحته أو مصلحة

أحدٍ من أهله، وعند توزيع الحقوق لا يقدِّم على حق الله تعالى شيئا أبدا، ولذلك فإنه – بهذه الحال – يصير شهيداً لله تعالى في الأرض.

الغفور: أي واسع المغفرة، الذي يغفر ويصفح عن ذنوب العباد، ويعفو عنهم، والعبدُ الذي يتجلى فيه هذا الاسم يُقبل على الاستغفار والدعاء، وتراه متسامحا تجاه الإساءات والأخطاء التي تُرتكب في حقه.

العفو: أي كثير العفو، الذي يمحو ذنوب العباد ويتجاوز عنها، والعبد الذي يحظى بتجليات هذا الاسم يغتم بكثرة ذنوبه ويطلب من الله تعالى العفو عنها دوما، كما أنه ينأى بنفسه عن كل أشكال اليأس والقنوط، وهو من جهة أخرى متسامحٌ مع عباد الله، ويرى في العفو والصفح فضيلة عظيمة، فلا يقابل الشر بالشر متأسيا في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يعفو عمن أساء له حتى أولئك الذين أساؤوا له عشرين سنة في مكة، فالعبد يرى لزاما عليه أن يأخذ نصيبه من هذا الاسم لأنه واحد من أمة هذا النبي العظيم.

إنه يَعتبر بذلك الدعاء الحار (يا رب، اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون !) الذي ضرع به الحلاج حين رجمه قومه.

الصبور: أي عظيمُ الصبر، فلا يسرع بالعقوبة لعباده المؤمنين، ومن يعيش في ظلال هذا الاسم يحوز مفتاحا مهما من مفاتيح التوفيق والثبات، فهو يثبت ولا يتقاعس أبدا عن نصرة الحق، ويصبر على ما يواجهه في سبيل ذلك، ويُفيد أيضا من نعمة الصبر في أداء العبادات والطاعات، وفي مقاومة الشهوات المحرَّمة والإغراءات، وفي الرضا والتسليم بقضاء الله تعالى وقدره.

الكريم: أي كثيرُ اللطف عظيمُ الإحسان، الذي اجتمعت في نفسه كلُّ الفضائل، والعبدُ حين يحظى بنصيبٍ من هذا الاسم الشريف يتخلص من كل أشكال البخل، وتترقى روحه حتى تراه يجود على العباد بكل خير، ويقتسم معهم كلَّ نعمة أنعم اللهُ بها عليه، وكذلك يحفظ نفسه من كل رذيلة ونقيصة تضرُّه، فالتكريم عند الله يوم القيامة إنما يكون بالتقوى لا بغيرها، فتراه يسعى جاهدا للتقدم في هذا السبيل.

الودود: أي الذي يحِب ويحَب كثيرا، والعبد حين يحظى بنصيبٍ من هذا الاسم يحب كلَّ مَن يحبه الله تعالى، ويحبه كذلك كلُّ شيء في هذا الكون، بيدَ أنه لا يحب الكافرين الذين استحقوا – بمعاصيهم – غضبَ الله تعالى وسخطه، وكذلك لا يكون محبوباً منهم.

فالمؤمنُ حين يكون قلبُه معلقا بالله تعالى في هذه الدنيا لا ينغمس في الرذائل والمفاسد، ولا ينشغلُ بالسخيف من الأمور والأحوال، ولا ينهمك في العبث والأباطيل، ولا يغتر بالخيالات والأوهام، فتراه لا يجيب الجاهلين حين يستفزونه، ولا يلطِّخ صفحة عمله بالنميمة والتفاهات، وإنما تراه ساعيا بكل جِدّ ليكون وليا من أولياء الله تعالى.

إنّ أيّ قلبٍ حين تطفو على صفحته الشكوى والاعتراضُ والجحودُ بدل الشكرِ والتسليمِ والرضا حيالَ تقلباتِ الدنيا وتحولاتها فإنه يفقد شعور المراقبة لله تعالى.

وأما الذين يعيشون مع الله تعالى ويراقبونه على امتداد حياتهم فإن الله يكرمهم بهذه النعمة حتى أنفاسهم

الأخيرة، ويعيشون في أفق هذه المعرفة، فينصرف القلب بكليته إلى الله تعالى، لأنه سبحانه هو وحده من يستحق أن تُخصص قلبكَ له، وتتخلص من كل محبة آفلة لهذه الدنيا ومتعها وإغراءاتها الزائلة، فالقلب حين لا ينشغل بالله تعالى فسيشغل بما سواه.

وكلما اقترب القلبُ من حقيقة المراقبة هذه اتضحت نظرتنا إلى هذا الكون شيئا فشيئا، فنراه آيةً من آيات الله تعالى، وحينئذٍ نستطيع أن نعمل بقوله تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ العلق

ويظهر للقلب بجلاء أنَّ كلَّ شيء في هذا الكون إنما هو تجلٍ لأسماء الله تعالى.

فأسماءُ الله الحسنى التي تتجلى في الكون والقرآن والإنسان إنما يعيها العبدُ حين يعيش تلك النشوةَ العظيمة إذ تتكشف الحجب أمام قلبه وعقله ووعيه، فيدرك في النهاية عجزَه وضعفَه أمام عظمة وكبرياء رب العالمين سبحانه.

الخاتمة

إن طريق التصوف — أيها الأحبة — ليس ألفاظاً وإشاراتٍ وإنما هو حالٌ وعمل، وسعيٌ دائب يجتهد المريد فيه أن يستوفي نصيبا وافرا من أخلاق أولياء الله تعالى وأحوالهم، أما من يتعلق بالظواهر، ويرى التصوف بلاغةَ ألفاظٍ وفصاحةَ كلامٍ فقد خدع نفسه.

وكذلك يخدع نفسه ويخدعُه الشيطانُ أيضا مَن يجعل الكراماتِ والكشوفات غايةً له بدل التخلق بالأخلاق المحمودة والتلبُّس بالأحوال الشريفة، فأعظمُ كرامة ينالها عبدٌ إنما هي الاستقامة على شرع الله تعالى، وقد خاطب الله تعالى نبيه ومن معه من الصحابة الكرام :

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ هود.

وكذلك أعلام الإسلام وعظماؤه إنما وصلوا إلى ما وصلوا إليه باستقامتهم على منهج الله تعالى لا بالكشف

والكرامات، وكانوا يرون أنهم – فيما لو كان المعيارُ في التفاضل هو الكرامةَ – لن يكونوا أفضل من ذلك الطائر الذي يحلق في أجواز الفضاء، والسمك الذي يغوص في أعماق البحار.

إنهم عبَّروا بحالهم وقالهم عن أن البراعة الحقيقية تتمثل في القدرة على الاستقامة في ظلال العبودية لله تعالى، وامتثال أمره ونهيه سبحانه، وليس في نزوعهم إلى تقليد الطير والسمك.

يقول أبو يزيد البسطامي قُدس سرُّه:

(إذا رأيت أحدا يتربع في الهواء فلا تحكم على هذا بأنه كرامة ما لم تر هذا العبد يصون حدود الله تعالى ويلتزم أمره ونهيه، ويتبع السنة، ويراعي حقوق الله تعالى).

فأولياء الله تعالى لا يُظهِرون الكرامة مالم يضطروا إلى ذلك اضطرارا، لأنهم برئوا من التفاخر والتعالي، وإنما يُظهِرون من أخلاقهم ما يسع الناسَ تقليده واتباعه.

ولابد أن نتنبه جيدا لتلك الوصية التي أوصى بها سيدُنا الحسن البصري رحمه الله تعالى أحدَ طلابه في شأن الكرامة،

حيث قال: (لا يخدعنك علو درجة المرء في المعرفة والعلم، ف " بلعام بن باعورا"، بلغ ما بلغ من مقام كان ينظر فيه إلى اللوح المحفوظ، ولكن القرآن جعله لنا عبرةً من العبر:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الأعراف.

ويقول مولانا خالد البغدادي:

"نسئل الله لنا ولكم دوام الإستقامة. فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها، فهي خير من ألف كرامة. وأوصيكم بالإشتغال بإحياء السنن السنية وقمع البدع الردية ونشر العلوم بالإخلاص والتمسك بآداب ساداتنا الخواص ونفي الوجود وبذل الموجود والصبر على المفقود والتبتّل الى الملك المعبود وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام والسلام في البدء والختام." (محمد أسعد صاحب، بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٣٤، ص. ٢٦٧)

وأما الشيخ محمد أسعد الإربيلي فينذر الأئمة والمرشدين من التساهل بشأن الاستقامة، ويقول:

(كل شخص لا يستظلُّ بالاستقامة سيزول لا محالة، سواء كان عالما أم شيخا، فإذا لم تتحمل أعباء الاستقامة حتى ينوءَ بها ظهرُك فكيف ستصيب غايتك في قرب الله ﷻ).

ولذلك علينا أن نتأمل ونتأثر بحال أولئك الأولياء الذين تضطرب قلوبهم خوفاً من أن يحيدوا عن جادة الاستقامة قيد شعرة. وإن تلك التعبيرات التي سجلتها رسالة مولانا خالد البغدادي لمريديه وطلابه لتُعَدُّ أبلغَ وثيقةٍ على هذه الحال:

(كم من عبدٍ ضعيف لا يؤبَه له، ينظر إليه الناس بعين الشفقة والرثاء، يغادر الدنيا بسلامة الأنفاس الأخيرة ويفوز بحسن الخاتمة، بينما يُختم لكثير من أصحاب العلم والغنى والحسب والنسب بسوء الخاتمة بسبب غفلتهم مع أنهم كانوا مرشدي زمانهم.

ولما كان الفيصل في هذا الأمر إنما هو ختام الحياة والنفس الأخير فيها كان الكِبر والغرور والإعجاب بالنفس شقاء كبيرا. فإنني أقسم بالله أني منذ ولدت إلى هذه اللحظة لا أجزم أني عملت عملا يُرضي الله تعالى عني



أو يقبله مني، بيد أني لا ألوي إلا على رحمة الله تعالى، وإذا أنت لم تنظر إلى نفسك على أنها مفلسة من كل عمل فهذا منتهى الجهل. وإني لأرجو أن تكونوا جميعاً منشغلين بعملٍ نافع عندما يغادركم النفسُ الأخير من حياتكم، وأن تقوموا بأعمالكم على وفق السنة، وألا تلتفتوا إلى المظاهر الخداعة لهذه الدنيا الفانية، وألا تنسوا العبد الفقير – يقصد نفسه – من دعوةٍ صادقة له بالتوفيق والسداد وحسن الخاتمة)

إن هذه الأخلاقَ السامية للسلف الصالح تنبهنا إلى أنه لا نهاية للعبد في طريقه وسيره إلى الله تعالى، فالتقوى لا منتهى لها ولا حد، وهكذا كان حال رسول الله ﷺ حتى آخر أنفاسه الطاهرة في هذه الحياة، فكم كان يقول في تضرعه: (يا ربي، ما عرفتك حق معرفتك، وما عبدتك حق عبادتك)، فبعد هذا أي عبد يظن نفسه كاملا ويأمن على نَفَسِه الأخير والأمانُ لم يُعطَ إلا للأنبياء والمبشَّرين، فليَحرِص كلٌّ منا على أن يكون نَفَسُه الأخيرُ في طاعة الله تعالى ورضاه.

وأما من يظن أنه اكتمل له السير والسلوك فقد قطع بنفسه في منتصف الطريق، ويعبر مولانا جلال الدين الرومي عن هذا المعنى بقوله:

(يا أخي ! إن الحرم الإلهي تكية لا نهاية لها، فأيَّ مكان بلغتَ في هذا الحرم فلا تتوانَ عن بلوغ ما بعده، وامض قدما في سبيل الله تعالى، وإني لعبدٌ لذي الهمة العالية الذي لا يقنَع بمقامه الذي هو فيه، ويعلم من نفسه أنه لم يصل مائدة الرحمن بعد ولم يحظ بنعمة قربه سبحانه وتعالى)

فبتوفيق الله تعالى أولا، وبالمجاهدات الصوفية ثانيا يتنقى القلبُ شيئا فشيئا، حتى يبلغَ العبدُ بذلك مقاما يشابه فيه الملائكة، فيصير ملكاً باطناً وإنساناً ظاهراً.

وإنَّ بعضَ مَن يُكرِمُهم اللهُ تعالى بهذه الحال يعيشون في عوالمهم الذاتية، لا يلتفت إليهم أحد وكأنهم إحدى النجوم المتناثرة في هذا الفضاء اللامتناهي.

وأما البعض الآخر منهم فيُعرَفون على نطاق واسع بسبب ما يوكل إليهم من مهامَّ اجتماعية، كما يحظون بنصيبٍ من سر البقاء حفاظا على استمرار مهامهم في الحياة البشرية، بوصفهم شعلة هداية تمتد من زمانهم حتى المستقبل، كما يدركون السبب النهائي في سلسلة الأسباب الكامنة وراء الحوادث فلا يغيب عنهم مراد الله تعالى.

ونتيجة لذلك فهم يعيشون في سكينة وطمأنينة، ويصونهم الله تعالى ويحفظهم من مظاهر الضعف البشري كالهمِّ والقلق.

فيسلَمُون من كُلِّ شرٍّ حولهم حتى من مهاجمة الحيوانات المتوحشة، فهم ينظرون إلى من حولهم بعين الرحمة، فأول درجة في طريق ترقيهم الروحي إنما هي (ارحم الخلق لأجل الخالق).

فأثر المحبة في النفوس والقلوب بالغٌ وعظيم، كالإشعاع الذي لا تراه العين بينما هو يفعل فعلَه في الأجسام، فهم لا يرون هذا الكون وصورَه البديعةَ بعينٍ عادية كالناس الآخرين، فعندما يستحسن إنسانٌ عادي لوحةً أبدعها رسامٌ يحاكي فيها الطبيعة فهو لا يشعر في نفسه بالاستحسان ذاته حين يقف أمام صفحات الكون الحقيقية، لأنَّه يتلقى كلَّ معجزات الكون على أنها أشياء اعتيادية، أما أولياءُ الله تعالى الذي حازوا قلوبا مرهفة فإنهم يعيشون بنشوةٍ وإعجابٍ حِيَالَ الخالق الحقيقي

سبحانه وتعالى وكلِّ ما أبدعه، لا أمامَ لوحاتٍ وصورٍ لا يبتغي رسامُها من ورائها إلا الذِّكرَ والشُّهرة، فهم يَلِجُون أعماقَ المعجزات اللامتناهية التي أبدعتها يدُ القدرة الإلهية ويدكون أسرارَ جمالها وروعةَ تكوينها، فمِن خَلْق الإنسان وإدراكِ العقل وإبصارِ العين إلى تلك الزخارف البديعة التي تتزين بها أجنحة الفراشات الهائمة في السماء، إلى تلك الألوانِ والطُّعومِ والروائحِ التي تملأ عالم النبات والثمار مع أنها تنبت من تربة واحدة وتُسقى بماءٍ واحد، إنهم يرون في كل ذلك إبداعُ الخالق العظيم سبحانه.

فيُصبِح الكونُ كلُّه من حولهم كتاباً مفتوحاً وما على المرء إلا أن يقرأه بعين التأمل والاعتبار، ويستشف ما بين سطوره ليبلغ إلى حكمه وأسراره.

وهذا يشبه حال مولانا جلال الدين الرومي حين اشتعلت جَذوة العشق في قلبه بنظرات أحد الدراويش الذين امتلأ كيانهم بعشق الله تعالى وكان يسمى "شمس"، فبعد أن كان مولانا مدرسا في إحدى مدارس السلاجقة

ومشغولا بقراءة الكتب وإقرائها ولِدَ من جديد على يد "شمس"، وانشغل منذ تلك اللحظة بقراءة الكون بدل الكتب، وبالبحث في أسراره بدل البحث في بطول الصحائف، ليُبدع تلك التحفة الرائعة المسماة " المثنوي" الذي يبوح ويحكي أسرارَ وحكم الكون والقرآن والإنسان.

وإنَّ المؤمن لا يمكنه أن يتحلى بأحوالٍ كهذه إلا بقدر احتراق قلبه بنار العشق، فقلوبٌ كهذه تكون محلَّ نظر الله تعالى واستقبال تجلياته، وتصير كالبوصلة التي تبين الحقيقة، وفي هذا الشأن يقول مولانا مبيننا شرف القلب الذي تطهر إلى هذا الحد:

الكعبة بنيان الخليل بن آزر

والقلب محل نظر الله الجليل الأكبر

وكثيرا ما يطالعنا في كتب مناقب المتصوفة تشبيه القلب بالكعبة، وهذا يرجع إلى أنهم يعدُّون القلب مركز الجسم كما الكعبةُ مركز الكون، والواقع أنَّ كليهما يعتبر مركزياً من حيث كونهما محلاً للتجليات الإلهية ومركزاً لها، وفي

بعض الأحيان يُقَدَّم القلبً في هذه المناقب على الكعبة، حيث إنَّ نشوة العشق الإلهي تستبد أحياناً بالكاتب فيعبِّر عن أهمية ترقية القلب إلى هذا المستوى مرغِّبا المريدَ في الاجتهاد حتى يبلغ هذا المقام.

وهنا نذكر باهتمام تلك الكلمات التي فاض بها وجدان سيدنا ابن عمر ﵄ مخاطبا الكعبة المشرفة، ومقارنا بينها وبين الذين صارت قلوبهم محلا لتنزل التجليات الإلهية:

(مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ)[٦٤].

فالقلب هو محل الإيمان، وكما يفهم من هذا التعبير الذي قاله سيدنا عبد الله بن عمر أن قلب أيِّ مؤمن كاملٍ أعظمُ شرفاً عند الله من الكعبة.

ومن معين هذه الكلمات يقول مولانا جلال الدين الرومي:

(إذا كنت على بصيرةٍ فطُف بكعبة القلب، فالمعنى

٦٤. سنن الترمذي، باب تعظيم المؤمن، ٢٠٣٢.



الحقيقي للكعبة – التي تحسب أنها صنعت من تراب – إنما هو القلب، فالله فرض عليك أن تطوف بكعبةٍ مرئيةٍ معروفةٍ محسوسةٍ لعلك تَظفَرُ بكعبةِ قلبٍ مصفى مُطَهَّرٍ من المعصية، واعلم جيدا أن أي قلب يكون محلا لنظر الله تعالى يُعد لؤلؤة، فإذا فرطّتَ فيها فلا يعوضها أي فعل، ولو ذهبت إلى الكعبة ماشيا ما عوضت خسارة التفريط بالقلب المصفى).

أما مولانا عبد القادر الجيلاني، فيعبر عن شرط هذا السمو إذ يقول:

(القلب لا يكون كعبة إلا للساعين إلى معرفة الله، الغائبين عن كل ما سوى الله).

وفي هذا الشأن يقول إسماعيل حقي البورسوي:

(المرء الذي يدخل القلب يكون أعلى منزلةً من المرء الذي يدخل الكعبة، وهذا هو السر في أنهم يقولون للعباد الصالحين ولأولياء الله: اجعلونا في قلوبكم ولا تخرجونا منها، وبذلك هم يستمدون منهم الفيض ويطلبون الهمة).

ويعبر الإمام الرباني عن حقيقة أن الإنسان "كون صغير" على هذا النحو:

(الإنسان هو صورة مصغرة عن العالم، ولهذا فإنك ترى في الإنسان نموذجاً لكل شيء في العالم).

ولأن القلب والفؤاد له أهمية في ضمان سعادة الإنسان وسلامته فيُعتبَر جَرْحُ مشاعره من قِبَل الآخرين جُرمَاً كبيراً عند أهل التصوف، وبناءً على هذا يحذِّر مولانا جلال الدين الرومي أولئك الذين يؤذون القلب:

(القلب الخَرِبُ الذي لا تقدِّرُه قد يكون أعلى منزلةً من العرش والكرسي واللوح والقلم، فإياك أن تحقِرَ قلباً مهما كانت قيمتُه في نظرك، فهو مشرَّف على ما ترى فيه من ضَعَةٍ، فالقلبُ الخَرِب قد ينظر اللهُ إليه ولو بعد حين، وإنَّ إصلاح القلب المكسور أفضلُ عند الله من أعمال خير كثيرة).

وإن القلب لا يتحقق له الترقي في مدارج الكمالات إلا إذا تكللت مجاهدات العبد بتوفيق الله تعالى وكرمه، ذلك

أنه على أهمية المجاهدات والأعمال الصالحة التي يتقدم بها العبد بين يدي مولاه إلا أنها لا تعدو أن تكون وسيلة لتلقي العون والكرم الإلهي.

وبناءً على هذا فإن العبد عليه أن يرجو الله تعالى ويستمد من لطفه وكرمه، فالألطاف الإلهية إذا شملت العبد كان ربحُه ومغنمُه محققاً لا ريبَ فيه، ولكِنْ ينبغي على العبد أن يقومَ قدر استطاعته بالمجاهدات التي يرضى اللهُ تعالى عنها علَّها تكون وسيلةً لنيل توفيق الله تعالى والفوزِ بكرامته.

ولقد كان القدماء يقولون:

(ما لا يُدرَك كُلُّه لا يُترَك جُلُّه).

وكذلك ينبغي على العبد أن يفكر وهو يهذب قلبه، فلا يتهاون في القيام بما يقدر عليه ولو كان قليلا،، وهناك مثل صوفي مشهور: (مَن سَعَى أُعينَ، ومَن قَعَدَ أُهينَ)، أي أن على أيِّ مريد ينتظر العون من أستاذه أن يبدأ هو

أولا بالسعي والاجتهاد، فالذي يريده الله تعالى من العبد في تهذيب القلب إنما هو إخلاص النية وصفاءُ السريرة وإدراكُ الضعف والعجز البشري أمام عظمة الله تعالى مقرا بحقيقة (من عرف نفسَه عرف ربَّه)، ثم يأتي التوفيق من الله تعالى بعد سعي العبد ومجاهدته لنفسه.

فمحاسبةُ اللهِ تعالى لعبده تكون على قَدْرِ ما أكرمه الله تعالى به من لطف ونِعَمٍ، وعلى الإنسان أن يجتهد في بلوغِ الخير أكثر وأكثر كلما زادت نعم الله تعالى عليه.

اللهم يا رب أنِر صفحاتِ قلوبِنَا بأنوار حقائقك، وافتح مغاليق عقولنا بأسرار حكمك، وأكرم بصائرنا وأبصارنا بالنظر إلى وجهك الكريم يوم القيامة يا أكرم الأكرمين.



الفهرس

